



رابطة الجامعات الإسلامية

سلسلة فكر المواجهة
(١٣)

التسامح في الفكر الإسلامي

تحرير

أ.د. / جعفر عبدالسلام

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

أ.د. جعفر عبد السلام

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

توالي رابطة الجامعات الإسلامية فتح ملفات العلاقات المتوترة مع الآخر، ونقدم اليوم ملفاً جديداً عن " التسامح في الفكر الإسلامي ". لقد كافنا العديد من العلماء بالكتابة في هذا الموضوع المهم الذي نجد الكتابات الأولى فيه كتبت من علماء من الغرب اهتموا بالتاريخ الإسلامي، وبالذات تاريخ الفتح الإسلامية مثل Jostaf Lobon ، Thomas Arnold وغيرهم وغيرهم.

لقد قبلنا هذا المصطلح Tolerance لأنه صار مصطلحاً مهماً في الوقت الحاضر، حتى إن الأمم المتحدة خصت عاماً كاملاً له، كما اهتمت الجمعية العامة للأمم المتحدة والعديد من وكالاتها المتخصصة خاصة اليونسكو والإيسيسكو بالتسامح، وبذلت جهداً كبيراً في إشاعة ثقافته بين كل الناس، حتى يتعايش البشر جميعاً في ظلال السلام والتسامح والتعاون بين الناس على ما يرضي الله " على البر والتقوى " وعلى كل ما يحقق الخير بين البشر، ويقضي على نوازع التعصب والشر بين الناس.

إن تقليب صفحات التاريخ الإسلامي وسيرة النبي محمد ﷺ ترينا أبواباً ناصعة وعلامات مضيئة حيث يتعامل المسلمون دائماً بروح المودة والمحبة مع الغير، وحرصوا دائماً على إقامة صروح لعلاقات قوية مع الكافة إعمالاً لقوله تعالى: (وتعاونوا على البر

والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) [المائدة: 2] وقوله: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وءاتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمسكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) (البقرة - 177)

وهكذا بين الرسول بعض صور التعاون في الحياة بين المسلمين بعضهم البعض، ومع غيرهم وفصل هذه الصور من التعاون على تعمير الأرض، وإعطاء المحتاجين ما يحتاجون إليه، والوفاء بالعهد والصبر على المكاره، والتكافل بين البشر، واعتبر ذلك أفضل ما يقوم به المسلم سواء مع المسلمين أم مع غيرهم.

لقد ضرب رسول الله (ﷺ) أروع أمثلة التسامح في حياته، وسنجد في طيات هذا الكتاب هذه الصور بشكل واضح سواء في صلح الحديبية أم في حجة الوداع أم في تعامل الرسول مع أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون معه في المدينة، أو في استقباله للمسلمين من أهل نجران أو في التعامل مع غير المسلمين في غزواته، وبالذات في تعامله مع الأسرى وضحايا الحروب بشكل عام. ولعل موقفه في صلح الحديبية كان مثلاً ناصعاً في إثارة السلام وحقق الدماء، والتعاون مع غير المسلمين.

أما صحابة رسول الله ﷺ فقد أكملوا ما بدأه الرسول الكريم، وضربوا أمثلة ناصعة البياض في التسامح والتعامل مع الغير بعدالة وإنصاف، ولعل عمر وموقفه من الذمي الذي ضربه ابن عمرو بن

العاص وإصراره على أن يضرب عمرو وولد بالدرة لأحد الأمثلة التي تضرب في هذا الشأن. ونفس الشيء نجده في العهدة العمرية التي ترىنا كيف قرر عمر حماية المقدسات وأصحاب العقائد الأخرى في المدينة المقدسة.

ولعل قراءة سيرة صلاح الدين الأيوبي وخلفاء الدولة العثمانية بعد ذلك ترىنا كيف سار الخلفاء على الدرب، واحترموا غيرهم وقدموا له من وسائل المساعدة في كافة الظروف، مما جعل دولة الإسلام تتبوأ مكاناً سامقاً في احترام الآخر، واستيعاب الحضارة الإسلامية لكل فنون الآخرين وأفكارهم وآرائهم.

إن فن بناء الحضارة يتجلى بوضوح في استيعاب أهمية التسامح ومراعاة الآخر، وما يمكن أن يقدمه للإنسانية، دون أن يتوقف ذلك على دين دون آخر أو لون دون لون، ومن هنا كانت قوة الإسلام، وقوة حضارته وتوجهها للكافة وقدره الإسلام بما يملكه من عناصر التقدم وفنون الحياة، حيث استوعب الإسلام ذلك كله، ونقى العقائد من شوائب الوثنية وعفن التقليد، وانطلق بالناس وانطلقوا به مؤمنين موحدين قادرين على الولوج إلى الحياة والعمل المتقن بما يفيد الإنسان في حياته وفي آخرته.

لذا سنجد بين دفتي هذا الكتاب مقالاً عن التسامح في الإسلام كتبه أ.د. محمود زقزوق وزير الأوقاف المصري، كما سنجد فيه، دراسة للدكتور أحمد النجمي عن سماحة الإسلام في الجانب الاجتماعي، ثم دراسة تاريخية للدكتورة هدى درويش عن تسامح الدولة العثمانية مع غير المسلمين وأثره في تقدم الحياة فيها ثم أثره

الضار نتيجة للإفراط في منح الحقوق، وكيف أدى ذلك إلى تفسخ دولة الخلافة ثم انهيارها في نهاية المطاف .

كما نجد دراسة للدكتور أحمد عامر بشرح فيها موقفا تاريخيا لدفاع المسلمين عن اليهود الذين اضطهدوا في ظل الحضارة الغربية المعاصرة مما يدل على عدالة المسلمين وذودهم عن الحق أياً كان أطرافه .

وتخصص البحوث التالية لأحكام قانون الحرب في الإسلام، ثم لمظاهر التسامح في العلاقة بين المسلمين وغيرهم، للدكتور محمد بدر معبدي، ثم دراسة عن حرية المعتقد الديني لغير المسلمين في ظل سماحة الإسلام للدكتور على عبد العال الشناوى واختتمت الأبحاث بدراسة للأستاذ وليد كساب بعنوان " التسامح الإسلامي بين النظرية والتطبيق " . وبعد ذلك يأتي القسم الثاني من الكتاب والذي يضم بعض الوثائق المهمة التي ترتبط بالتسامح في الدولة الإسلامية .

وفى النهاية ، لا يسعني إلا أن أتقدم إلى الله سبحانه وتعالى بالشكر على نعمائه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أولاً : الدراسات

التسامح في الإسلام

أ.د/ محمود حمدي زقزوق^(*)

تمهيد:

الإسلام دين عالمي يتجه برسالته إلى البشرية كلها، تلك الرسالة التي تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم وترسى دعائم السلام في الأرض، وتدعو إلى التعايش الإيجابي بين البشر جميعاً في جو من الإخاء والتسامح بين كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم، فالجميع ينحدرون من نفس واحدة^(١).

وعالمنا اليوم في أشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الإيجابي بين الناس أكثر من أي وقت مضى نظراً لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يوماً بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية التي أزالَت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب حتى أصبح الجميع يعيشون في قرية كونية كبيرة.

والإسلام دين يسعى من خلال مبادئه وتعاليمه إلى تربية أتباعه على التسامح إزاء كل الأديان والثقافات، فقد جعل الله الناس جميعاً خلفاء في الأرض التي نعيش فوقها، وجعلهم شركاء في المسؤولية عنها، ومستولين عن عمارتها مادياً ومعنوياً - كما يقول القرآن الكريم: ﴿هُوَ

(*) وزير الأوقاف المصري.

(١) كما جاء في القرآن الكريم: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ"

[النساء: ١].

أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿٦٢﴾ [هود:٦٢]، أي طلب منكم عمارتها
وصنع الحضارة فيها، ومن أجل ذلك ميّز الله الإنسان بالعقل وسلّحه
بالعلم حتى يكون قادراً على أداء مهمته وتحمل مسؤولياته في هذه
الحياة.

ولهذا يوجه القرآن الكريم خطابه إلى العقل الإنساني الذي يعد
أجل نعمة أنعم الله بها على الإنسان، ومن هنا فإن على الإنسان أن
يستخدم عقله الاستخدام الأمثل، وفي الوقت نفسه يطلب القرآن من
الإنسان أن يمارس حريته التي منحها الله له، والتي هي شرط ضروري
لتحمل المسؤولية، فالله سبحانه لا يرضى لعباده الطاعة الإلحائية التي
تجعل الإنسان عاجزاً عن العمل الحر المسئول، فعلى الإنسان إذن أن
يحرص على حريته، وألا يبديها فيما يعود عليه وعلى الآخرين
بالضرر.

ومن شأن الممارسة المسئولة للحرية أن تجعل المرء على وعي
بضرورة إتاحة الفرصة أمام الآخرين لممارسة حريتهم أيضاً، لأن لهم
نفس الحق الذي يطلبه الإنسان لنفسه. وهذا لا يعني أن العلاقة الإنسانية
بين أفراد البشر هي علاقة موجودات حرة يتنازل كل منهم عن قدر من
حريته في سبيل مجتمع إنساني يحقق الخير للجميع، وهذا يعني بعبارة
أخرى أن هذا المجتمع الإنساني المنشود لن يتحقق على النحو الصحيح
إلا إذا ساد التسامح بين أفرادهِ، بمعنى أن يحب كل فرد فيه للآخرين ما
يحب لنفسه.

التسامح الإيجابي الشامل :

ولا شك في أن وعينا بأننا خطّاعون^(١) يواكب في الوقت ذاته وعيناً بمسئوليتنا التي تتركز عليها كرامتنا الإنسانية، الأمر الذي يمكننا من السلوك القويم المتسامح حيال الآخرين الذين يشاركوننا في الإنسانية والذين ينبغي أن يربطنا بهم رباط التضامن الإنساني المشترك، والتسامح - كما ألمحنا - يقوم على الاعتراف بحرية كل إنسان وكرامته، ونحن مطالبون أخلاقياً ودينياً أن نكون متسامحين مع كل البشر بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والثقافية والدينية والإيديولوجية.

ولا يكفي الإسلام بتعليم أتباعه هذا التسامح الشامل بوصفه شرطاً من شروط السلام الضروري للمجتمع الإنساني، بل يطلب منهم أيضاً الالتزام بالسلوك العادل الذي لا يقبل الآخر فحسب؛ بل يحترم ثقافته وعقيدته وخصوصياته الحضارية. وخير وصف يمكن أن نطلقه على هذا التسامح أنه تسامح إيجابي وليس تسامحاً حيادياً. وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

(١) في ذلك إشارة إلى الحديث النبوي: "كل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون"، رواه عن أنس كل من الإمام أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه والحاكم في المستدرک. (راجع فيض القدير للمناوي ج ٥ ص ١٦ - دار المعرفة بيروت ١٩٧٢م).

ومن الملاحظ في هذه الآية - وفي آيات أخرى كثيرة - أن القرآن لم يستخدم أسلوب الأمر بطريق مباشر، وإنما استخدم أسلوب التنبية والتوجيه الذي يتطلب استخدام العقل الإنساني، ومن عادة القرآن أن يعالج المشكلات بطريقة متدرجة تتفق مع ثقافة كل فرد، والإسلام لا يريد أن يقول للناس كلاماً ليحفظوه ويعلموا به بطريقة آلية، وإنما يريد تربية النفس وتحقيق الذات والعمل المسئول الذي يؤدي عن اقتناع.

ويشتمل النص القرآني الذي أوردناه على ثلاثة أمور أولها: أن الله سبحانه وتعالى لم ينه عن التسامح مع الآخرين، وثانيهما: أن التسامح مع الآخرين الذين لم يعتدوا على المسلمين والتعايش الإيجابي معهم بالبر والقسط هو العدل بعينه، وثالثهما: التأكيد على أن من يسلك هذا السبيل يحظى بحب الله سبحانه وتعالى.

وبهذا الأسلوب المقنع الذي يخلو من الإكراه على فعل شيء ما أو الامتناع عنه تصل الرسالة القرآنية - رسالة التسامح - إلى النفوس في يسر وسهولة، وتحقق الهدف المطلوب، وهو نشر التسامح بين الناس على أوسع نطاق.

التسامح والتعددية :

ومن هنا لا يجوز أن ينظر إلى اختلاف الجماعات البشرية في أعراقها وألوانها ومعتقداتها ولغاتها على أنها تمثل حائلاً يعوق التقارب والتسامح والتعايش الإيجابي بين الشعوب، فقد خلق الله الناس مختلفين كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، ولكن هذا الاختلاف بين الناس في أجناسهم ولغاتهم

وعقائدهم لا ينبغي أن يكون منطلقاً أو مبرراً للنزاع والشقاق بين الأمم والشعوب؛ بل الأحرى أن يكون هذا الاختلاف والتنوع دافعاً إلى التعارف والتعاون والتآلف بين الناس من أجل تحقيق ما يصبون إليه من تبادل للمنافع، وتعاون على تحصيل المعاش، وإثراء للحياة والنهوض بها؛ ومن هنا يقول القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التآلف والتعاون في جميع المجالات.

وحتى يمكن الوصول إلى هذا الهدف كان لابد من إيجاد وسيلة للتفاهم وتبادل المشاعر والأفكار بين الناس. فكانت اللغة التي يتخاطب بها الناس ويعبرون بها عن أغراضهم ومشاعرهم وأفكارهم. ويُعد التفاهم عن طريق اللغة أسلوباً للتواصل بين البشر وتبادل الأفكار الذي يؤدي إلى تبادل المنافع فيما بينهم.

ولا يجوز أن يؤدي الخلاف في الرأي أو في الفكر أو في الاعتقاد إلى إفساد ما بين الناس من علاقات ، وهذا ما يعبر عنه القول المشهور: "الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية" ، وكما أعطى لنفسه الحق في أن يكون لرأيه الخاص ووجهة نظري المستقلة كذلك ينبغي أن أعطى الحق ذاته للآخر؛ فمن حقه أيضاً أن يكون له رأيه الخاص ووجهة نظره المستقلة؛ بل ومن حقه أن يكون له معتقده المختلف، فكل فرد في هذا خليفة في الأرض ليعمرها بالخير، ويملاها بالعلم، وينشر فيها الحق والعدل والأمن والسلام.

ولا جدال في أن الحوار قد أصبح في عصرنا الحاضر أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى، بل أصبح ضرورة من ضرورات العصر،

ليس فقط على مستوى الأفراد والجماعات؛ وإنما على مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب المختلفة، وإذا كانت بعض الدول فى القرن الجديد لا تزال تفضل شريعة الغاب بدلاً من اللجوء إلى الحوار، فإن على المجتمع الدولي أن يصحح الأوضاع، ويعيد مثل هذه الدول الخارجة على القيم الإنسانية والحضارية إلى صوابها حتى ننصاع إلى الأسلوب الأمثل فى التعامل وهو الحوار؛ فليس هناك من سبيل إلى حل المشكلات وتجنب النزاعات إلا من خلال الحوار.

ومن منطلق الأهمية البالغة للتعرف^(١) بين الأمم والشعوب والحضارات والأديان على الرغم من الاختلافات فيما بينها - كانت دعوة الإسلام إلى الحوار بين الأديان، وذلك لما للأديان من تأثير عميق فى النفوس. ويعد الإسلام أول دين يوجه هذه الدعوة واضحة صريحة فى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولم يكتف القرآن بمجرد الدعوة إلى الحوار بين الأديان، بل رسم المنهج الذى ينبغى اتباعه فى مثل هذا الحوار. وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

أما الحكم على الآخرين الذين يشاركوننا فى الإنسانية فيجدر بنا أن نتركه لله جل شأنه. وخير لنا بدلاً من ذلك أن نجتهد فى أن نسلك

(١) كما جاء فى الآية الكريمة: " وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا " [الحجرات: ١٣]

حيالهم مسلماً عادلاً متسامحاً طالما لم يسيئوا إلينا. فالدين لا يحفل إلا بالأعمال التي نتحمل نحن مسئوليتها، ولهذا يقول القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿وَأْمُرْتَ لِأَعْدَلٍ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

التسامح الديني :

ونظراً لما للدين من عمق عميق في النفوس فإن الحوار بين الأديان لا يمكن أن يكتب له النجاح إلا إذا ساد التسامح بين المتحاورين، وحل محل التعصب المعتاد بين أتباع الديانات المختلفة. وقد حرص الإسلام كل الحرص على تأكيد هذا التسامح بين الأديان بجعله عنصراً جوهرياً من عناصر عقيدة المسلمين.

فالأديان السماوية جميعها تعد - في نظر الإسلام - حلقات متصلة لرسالة واحدة جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله على مدى التاريخ الإنساني، ومن هنا فإن من أصول الإيمان في الإسلام الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله وما أنزل عليهم من وحى إلهي، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

ومن أجل ذلك يمتاز الموقف الإسلامي في أي حوار ديني بأنه موقف منفتح على الآخرين، ومتسامح إلى أبعد الحدود، فقد أقر الإسلام منذ البداية التعددية الدينية والثقافية، وصارت هذه التعددية من العلامات المميزة في التعاليم الإسلامية. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة. فقد تأسس مجتمع المدينة المنورة بعد هجرة الرسول إليها على التعددية

الدينية والثقافية، ومارس المسلمون ذلك من بعده عملياً على مدى تاريخهم الطويل.

ويؤكد ذلك ما يعرفه التاريخ من أن المسلمين لم يكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام، فالحرية الدينية مكفولة للجميع، وتعد مبدأ من المبادئ الإسلامية الذي أكدّه القرآن الكريم في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وفي قوله في موضع آخر: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ومن القواعد الأساسية المعروفة في الشريعة الإسلامية في شأن التعامل مع أهل الكتاب القاعدة المعروفة: "لهم ما لنا وعليهم ما علينا"، أي لهم ما لنا من حقوق وعليهم ما علينا من واجبات.

الخاتمة

ومما تقدم يتضح لنا بجلاء إلى أى مدى يعتبر التسامح الإيجابي - بوصفه تسامحاً شاملاً أو تسامحاً دينياً - من العناصر الأساسية فى تعاليم الإسلام، وبالتالي من الأهداف التى ترمى إليها التربية الإسلامية. ومن هنا فإن التزام المسلمين بذلك وحمايتهم لحقوق أتباع الديانات الأخرى الذين يعيشون فى المجتمعات الإسلامية أمر يدخل فى إطار التزاماتهم الدينية التى تقضى بالحفاظ والدفاع عن الحقوق الإنسانية العامة للجميع، وأى تجاوز أو عدوان على هذه الحقوق يعد تجاوزاً أو عدواناً على تعاليم الدين، وهو أمر يجب على المسلمين التصدي له بكل الوسائل.

وفى هذا الإطار يفهم أيضاً حديث النبى ﷺ: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"^(١).

ومن هنا فإنه ليس من التسامح فى شئ الوقوف موقف المنقرج حيال الظلم والقسوة اللذين يتعرض لهما أى إنسان بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو عقيدته.

وفى ختام حديثنا عن التسامح أود أن أشير إلى إحدى المأثورات الثابتة عن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، والتى تعد نموذجاً رائعاً على التسامح الإسلامى الإيجابي، فقد كان عمر يتجول

(١) رواه كل من الإمام مسلم والحاكم فى المستدرک وأصحاب السنن الأربعة أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه (راجع فيض القدير للمناوى ج ٦ ص ١٣٠).

كعادته ففى شوارع المدينة المنورة يتفقد أحوال الرعية، فرأى شيخاً طاعناً فى السن يتسول فى الطريق، فسأل عن أمره وعلم أنه يهودى، فحزن الخليفة لما أصاب هذا الشيخ الهرم مما اضطره إلى التسول، وأمر بأن يُخصص له - ولنظرائه - معاش ثابت من بيت مال المسلمين يتيح له حياة كريمة، وهذا الخليفة هو نفسه صاحب العبارة الشهيرة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتكم أمهاتهم أحراراً"^(١).

ومن هذه الأمثلة - وغيرها كثير - يتجلى بوضوح مدى حرص الإسلام على الدفاع عن حرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية العامة بصرف النظر عن انتماءاته العرقية أو الدينية أو الثقافية، وذلك كله يعبر تعبيراً لا يقبل التأويل عن التسامح الإسلامى الذى سىظل عنوان على هذا الدين إلى آخر الزمان.

(١) راجع على الطنطاوى: أخبار عمر ص ١٨٢ وما بعدها - دمشق ١٩٥٩م.

سماحة الإسلام فى الجانب الاجتماعى

أ.د/ أحمد عبد المبدى أحمد النجمى (*)

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين الذي خلق البشر جميعاً من أب واحد وأم واحدة واختار منهم مبشرين ومنذرين لهدايتهم جميعاً إلى صراط الله المستقيم، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي أرسله ربه رحمة للعالمين وعلى جميع إخوانه الأنبياء والمرسلين وعلى جميع الآل والصحب والتابعين.

وبعد،

لقد جاء الإسلام ليُعلم الأخوة الإنسانية ويبشر بالدعوة إلى المحبة والتضامن، ويبطل كل عصبية، ويسلك بالناس جميعاً طريق الخير والعزة، ويقرب بين النفوس المتنازعة والقلوب المتطاحنة والمشاعر المختلفة، ويجمع الناس جميعاً فى وحدة لا تفرق بين هذا وذاك، بل تسوى بين الجميع فى الحقوق والواجبات.

والتاريخ يؤكد أن الإسلام حقق هذه المعانى فى صورة رائعة جليلة، ومن المعلوم أيضاً أن الدعوة إلى الإسلام بدأت بالحكمة والموعظة الحسنة، وحتى إذا وصل الأمر إلى مرحلة المجادلة، فهى بالتى هى أحسن، وهذا يدل دلالة واضحة على مدى عظم سماحة الإسلام، سماحة لا يستطيع أى أحد إنكارها إلا إذا كان بعيداً عن الحق

(*) الأستاذ المساعد بقسم الأديان والمذاهب - كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة.

وكارهاً للحقيقة ، وهذا ما دعانى إلى الكتابة عن سماحة الإسلام وفي جانب من أهم الجوانب وأقربها إلى الإحساس البشرى، وهو الجانب الاجتماعى، وقد اشتمل هذا البحث على هذه المقدمة وعلى مدخل وثلاثة مطالب وخاتمة على النحو التالى:

المدخل : مفهوم السماحة والإسلام.

المطلب الأول : سماحة الإسلام فى العلاقة بين ذوى القربى.

المطلب الثانى : سماحة الإسلام فى العلاقة مع المسلمين.

المطلب الثالث : سماحة الإسلام فى العلاقة مع غير المسلمين.

الخاتمة : وتشمل أهم المراجع والفهرس.

والله الهادى إلى سواء السبيل

المدخل

مفهوم السماحة والإسلام

تجدر الإشارة في البداية إلى مفهوم كل من السماحة والإسلام حتى يستطيع القارئ الكريم أن يلم بمعظم جزئيات هذا البحث المتواضع وهذه الإشارة ستختصر - بمشيئة الله تعالى - في هاتين النقطتين:

النقطة الأولى : مفهوم السماحة :

أولاً : المفهوم اللغوي: فقد ورد حول مادة سمح: (سمح السماح والمسامحة: الجود، وسمحَ سَمَاحَةً وَسُمُوحاً وَسَمَاحاً: جاد، ورجل سَمَحَ وامرأة سَمِحة من رجال ونساء سماح ونساء فيهما، حكى الأخيرة الفارسي عن أحمد بن يحيى.

ورجل سميح ومِسمَاح: سَمَحَ، ورجال مساميح ونساء مساميح،

قال جرير :

غَلَبَ المساميح الوليدُ سماحةً وكفى قریش المعضلات وسادها

وفي الحديث: يقول الله - عز وجل - : (اسمحو لعبدي كما سماحه

إلى عبادي)، الإسماح: لغة في السماح، يقال: سمح وأسمح إذا جاد وأعطى عن كرم وسخاء، وقيل: إنما يقال في السخاء سمح، وأما أسمح فإنما يقال في المتابعة والانقياد، ويقال: أسمحت نفسه إذا انقادت ، والصحيح الأول.

والمسامحة: المساهلة، وتسامحوا: تساهلوا وفي الحديث

المشهور: (السماح رباح) أي السماحة في الأشياء تريح صاحبها.

وسمح وتسمح: فعل شيئاً فسيئاً فيه، أنشد ثعلب :
ولكن إذا ما جل خطب فسامحت به النفس يوماً كان للكره أذهباً
ولقولهم: الحنيفية السمحة: ليس فيها ضيق ولا شدة^(١).
وقيل: (سمح سماحاً وسماحة: بذل في العسر واليسر عن كرم
وسخاء، وسمح سماحة وسموحة: لان وسهل ، فهو سمح وسميح،
وسامحه: عفا عنه، ويقال في الدعاء: سامحك الله، ويقال سامحه بذنبه.
تسامح في كذا: تساهل، السمحة يقال شريعة سمحة: فيها يسر
وسهولة^(٢)).

وقيل: "سَمَحَ يَسْمَحُ سَمَاحاً: جاد وسمح يسمح سماحة صار من
أهل السماحة فهو سَمَحٌ وسميح، وتسامح، تساهل، وتسمح فيه:
تساهل"^(٣).

وبالنظر والتفكير في المعنى اللغوي لمادة سمح، يلاحظ شموله
لمعاني: الجود والبذل والانقياد، والسهولة واليسر، والبعد عن الضيق
والشدة، وجميع هذه المعاني بينيا ارتباط وثيق، فالجود والبذل لا
يتحققان إلا إذا سبقهما الانقياد والخضوع المشروع، كما لا يكتملان إلا
بطريق السهولة واليسر بعيداً عن الضيق والشدة.

(١) راجع لسان العرب لابن منظور - المجلد الثاني، مادة سمح ، ص ٤٨٩ - ط

الأولى - م دار صادر بيروت.

(٢) المعجم الوجيز - مجمع اللغة العربية - مادة سمح - ص ٣٢٠ - طبعة خاصة
بوزارة التربية والتعليم، عام ١٩٩١م.

(٣) دائرة معارف القرن العشرين - محمد فريد وجدي - المجلد الخامس - ص ٢٩٧ -
ط الثالثة - م دار المعرفة بيروت.

ثانياً : المفهوم الاصطلاحي : يقول مسكويه: "وأما السماح: فهي بذل بعض ما لا يحب، وأما المسامحة: فهي ترك بعض ما يحب، والجميع يكون بالإرادة والاختيار"^(١).

فالسماحة إذاً هي التعامل مع الغير بسهولة ويسر ورضا عن كل ما يبذله المتسامح سواء فعل ما لا يحب أو ترك ما يحب فالأمر عنده سواء ، فهو صاحب خلق رفيع ومروءة عالية.

النقطة الثانية : مفهوم الإسلام :

أولاً : المفهوم اللغوي : (وأسلم الله فهو مسلم، وأسلم: دخل في دين الإسلام، وأسلم: دخل في السلم وأسلم أمره الله، وسلّم أمره الله بالتفصيل لغة، واستسلم: انقاد"^(٢)).

وقيل: (الإسلام والاستسلام: الانقياد، والإسلام من الشريعة: إظهار الخضوع، وإظهار الشريعة، والتزام ما أتى به النبي ﷺ وذلك يُحقن الدم ويُستدفع المكروه، وما أحسن ما اختصر ثعلب ذلك فقال: الإسلام باللسان والإيمان بالقلب.

وأما الإسلام فإن أبا بكر محمد بن بشار قال: يقال فلان مسلم وفيه قولان: أحدهما هو المستسلم لأمر الله، والثاني هو المخلص لله العبادة، من قولهم سلم الشيء لفلان: أي خلصه، وسلم له الشيء أي خلص له، وروى عن النبي ﷺ أنه قال: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) قال الأزهري: فمعناه أنه دخل في باب السلامة حتى يسلم

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق - لابن مسكويه - تحقيق ابن الخطيب - ص ٣١ ط الأولى ، م المطبعة المصرية.

(٢) راجع: المصباح المنير للفيومي - مادة سلم - ص ٢٨٧ - م دار المعارف.

المؤمنون من بوائقه .. فالإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به سيدنا رسول الله ﷺ وبه يُحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب، فذلك الإيمان الذي هذه هي صفته^(١).

والمتدبر لهذا المعنى اللغوي للإسلام يلاحظ واضح شموله واحتضانه للمعنى اللغوي للسماحة، يفهم ذلك من خلال معاني الخضوع والانقياد والإخلاص لله تعالى ولمنهجه ولهذا لم تكن هناك حاجة لورود كلمة السماحة في القرآن الكريم حيث أن الإسلام كله والإيمان جله بكل ما يشتملان عليه من معان هما الممثلات للجانب العقدي والجانب العملي لأخلاق القرآن الكريم.

ثانياً : المفهوم الاصطلاحي : تتعدد مفاهيم الإسلام لدى العلماء والباحثين، ولكنها جميعها تتضافر وتتعاون لتعطي المفهوم اللائق بالإسلام، هذا الدين الخاتم الذي يتضمن المنهج الإلهي الذي به صلاح الدنيا وسعادة الآخرة.

الإسلام هو الدين الخاتم للأديان السماوية، أوحى به الحق - تبارك وتعالى - إلى رسوله ونبيه محمد ﷺ في مكة: دعوة إلى التوحيد الخالص، وكتابه هو القرآن الكريم.

فالإسلام يقوم على توحيد الله، وإلغاء الوثنية والتعدد، ونبذ عبادة الأوثان، والاعتراف بجميع الأنبياء والرسل السابقين والكتب المنزلة والملائكة، والإيمان باليوم الآخر، وقد جاء ديناً عالمياً للبشرية كلها وللإنسانية كافة، قام على أساس العلاقة المباشرة بين الله - تعالى -

(١) راجع : لسان العرب لابن منظور - المجلد ١٢ - مادة سلم - ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

والإنسان وشجب كل الوسائط والعلائق ، وجاءت دعوته جامعة بين الدين والدنيا، وبين القلب والعقل ، وبين الروح والمادة ومستهدفة إقامة منيخ ربانى قوامه إقرار الإرادة الإنسانية، وحرية الاختيار، والمسئولية الفردية، والالتزام الأخلاقى والجزاء الأخرى.

وقد جمع الإسلام بين العقيدة والعبادة والشريعة والأخلاق فى نسق متكامل بوصفه أسلوب حياة، ونظام دولة، ودستوراً شاملاً لصالح الإنسانية جمعاء.

والإسلام شرعاً : هو الأعمال الظاهرة من التلفظ بكلمة الشهادة، والإتيان بالواجبات، والانتهاى عن المنهيات، وعلى هذا فهو يغير الإيمان ولا ينفك عنه، وقيل: إن الإيمان تصديق قلبى، والإسلام طاعة وانقياد ظاهرى^(١).

والمأمل لهذه المعانى لا يغيب عنه ما تترين به وتتجمل من سماحة ويسر ومحبة ووثام ، وبعد هذا الإيضاح اليسير لمفهومي السماحة والإسلام، ننتقل - بمشيئة الله - إلى ما يؤكد هذه المفاهيم، وسماحة الإسلام ويسره وسعوانته، تظهر واضحة فى كل ما جاء به الإسلام من عقيدة وعبادة وشريعة وأخلاق، ولا يتسع المقام لتناول سماحة الإسلام فى كل هذه الجوانب، ولذا سيقصر هذا البحث على محاولة إيضاح سماحة الإسلام فى الجانب الاجتماعى، هذا الجانب الذى نال عناية فائقة من التوجيه الإسلامى لتقويمه وإصلاحه، والنهوض به

(١) معلمة الإسلام - الأستاذ أنور الجندى - ج ١ - ص ٢٣ - بتصرف يسير ، ط الثانية - م دار الصحوة.

إلى الرقى البشرى والمثالية الإنسانية، فقد وظف الإسلام كل محتوياته لهذا الغرض النبيل ، بل إن كل رسالة إلهية سبقت الإسلام كانت من أجل هذا الغرض بالقدر المناسب ، وجاء الإسلام بالمنهج الكامل والمستمر القدرة والكفاءة إلى قيام الساعة.

فالعقيدة الإسلامية ، والتي يمثل جوهرها التوحيد الخالص إنما هدفت في البداية إلى إصلاح المجتمع، (وخالصة التوحيد : حسن السير والسلوك مع الآخرين)^(١).

والعبادات في الإسلام إنما الغرض منها تهذيب السلوك البشرى وتقوية نوازع الخير وإضعاف بواعث الشر لأجل إصلاح العلاقات بين البشر، والمتأمل في الآيات التالية يلحظ ذلك جيداً، يقول الله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥]؛ ويقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، ويقول جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ويقول عز وجل: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

(١) واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام - وحيد الدين خان - ص ٨٢ - ط الأولى - دار الصحوة.

فكل العبادات فى الإسلام تدعو إلى تقويم الأخلاق وتهذيب السلوك إما لكونها - فى جوهرها - تنهى عن الفحشاء والمنكر كالصلاة ، أو لكونها تدعو إلى مساعدة المحتاجين من طوائف المجتمع كالزكاة والصدقة، أو لكونها تدعو إلى التقوى التى تتمثل فى مراقبة الله تعالى فى كل حال ومع أى كائن كالصوم والحج.

والمصدر الأول للإسلام وهو القرآن الكريم، كله دعوة إلى أسس الخير فى الدنيا والآخرة، وتصحيح وتوحيد لعلاقة الخلق بخلقهم، وعلاقة الخلق بعضهم مع بعض، وفيه الهداية الكاملة إلى أقوم طريق: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وقد بين الله تعالى أن الرحمة فى اتباعه ، والاعتصام به: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، كما بين سبحانه أن فى النكوص عنه، والبعد عن هداة، وعدم الاعتصام بحبله بعداً عن حقيقة الدين وجوهره، وانفصالاً عن الله ورسوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]^(١).

ولما كان الجانب الاجتماعى يتمثل فى علاقة الفرد بذوى رحمة وبإخوانه فى الدين وبرفاقه فى الحياة من غيرهم، استدعى توضيح سماحة الإسلام - فى هذا الجانب - تناول هذه المحاور من خلال المطالب الثلاثة الآتية :

(١) منهج الإسلام فى العقيدة والعبادة والأخلاق - د/ أحمد عمر هاشم - ص ٩١ - ط الأولى - دار المنار للنشر والتوزيع.

المطلب الأول

سماحة الإسلام في العلاقة بين ذوى القربى

إذا أريد لأى بناء أن يكون قوياً وسليماً فلا بد أن يبنى على أسس متينة ، والتعهد بالإجادة والإتقان لكل مراحلها، وبعد إتمامه لابد من تعهده بالصيانة والرعاية الكاملتين والمتواصلتين حتى يكون سليماً من أى عطب على مرور الزمن وتعاقب مراحلها، وإن الباحث البصير ليجد أن الإسلام - بسماحته ويسره - نبه الفكر البشرى إلى ذلك من خلال منهجه المتكامل ودعوته الدائمة إلى بناء المجتمع بناءً سليماً، ورعايته رعاية متكاملة متواصلة، فيلاحظ عظيم اهتمامه بالمجتمع بداية من أصغر وحدة فيه إلى المجتمع بكامله.

فسماحة الإسلام بالنسبة للعلاقة بين ذوى القربى تتمثل فى النقاط

الآتية:

١- العلاقة بين الزوج والزوجة : لما كانت العلاقة بين الزوجين تعتبر هى الأساس الأول لتكوين المجتمع بكل مكوناته، فقد نالت هذه العلاقة قدراً كافياً من اهتمام الإسلام وسماحته ومما يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، "من تمام رحمة الله ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة وهى المحبة ، ورحمة وهى الرأفة أو الألفة بينهما"^(١)، ولو نظرنا إلى الآية الكريمة لوجدناها قد أشارت إلى

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ ابن كثير - ج ٣ - ص ٤٢٩ - مكتبة التراث الإسلامى سوريا - حلب.

أهمية هذه العلاقة، فأشارت إلى أنها آية من آيات الله، وذلك في أولها، وأشارت في نهايتها أن في هذه العلاقة آيات تدل على عظمها وأهميتها لمن لهم عقول تتفكر في آيات الله تعالى وعظيم صنعه.

وكذلك يشير إلى التسامح في هذه العلاقة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِنَدَاهُمْ بِبَعْضِ مَا اتَّيَمُّوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، (والمعاشرة: مفاعلة من العشرة، وهي المخالطة والمصاحبة، أى وصاحبوهن وعاملوهن بالمعروف، أى بما حض عليه الشرع وارتضاه العقل من الأفعال الحميدة والأقوال الحسنة)^(١)، ويقول الإمام ابن كثير - مشيراً إلى مدى عظم سماحة الإسلام في هذه العلاقة - : وقوله تعالى: "وعاشروهن بالمعروف" أى طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيأتكم بحسب قدرتكم كما يحب أحدكم ذلك من زوجته، فليفعل معها مثله، كما قال تعالى: "ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف"، وقال رسول الله ﷺ: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى"، وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقة، ويضاحك نساءه حتى أنه كان يسابق السيدة عائشة - رضى الله عنها - يتودد إليها بذلك .. وكان ﷺ إذا صلى العشاء يدخل منزله يتسامر مع أهله قليلاً قبل أن ينام يؤانسهم بذلك ﷺ^(٢).

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم - د/ محمد سيد طنطاوى - المجلد الثالث - ص ١١٧ - ط الثانية - مطبعة السعادة.

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير - ج ١ - ص ٤٦٦ - بتصرف.

ويقول صاحب إحياء علوم الدين - رحمه الله تعالى - مدلاً على سماحة الإسلام في هذه العلاقة : (وأعلم أنه ليس حسن الخلق معها - أي مع الزوجة - كف الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها والحلم عند طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله ﷺ فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل .. وعلى الزوج أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمرح والملاعبة، فهي التي تطيب قلوب النساء، وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والخلق)^(١).

فهذه نظرة سريعة إلى سماحة الإسلام بالنسبة للعلاقة بين الزوجين اللذين يمثلان أول لبنة في بناء المجتمع.

٢- العلاقة بين الوالدين والأولاد : بعد خروج الأولاد للحياة تنشأ علاقة حميمة من الوالدين تجاه أولادهما، ولكن هذه العلاقة قد تشوبها بعض المكدرات بمرور الوقت ، وخاصة عندما يبلغ الوالدان الكبر، وتتزايد مسئوليات الأولاد، ونجد الإسلام يحرص ويعمل على أن تظل هذه العلاقة منتعشة قوية يسودها الإحسان والحسن بعيداً عن الانهيار والضعف، ولا أدل على ذلك من آيات القرآن الكريم ، والتي قرنت في معظمها الإحسان بالوالدين بعبادة الله تعالى ، يقول جل شأنه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

(١) راجع إحياء علوم الدين - للإمام الغزالي - المجلد الثاني - ص ٤٣-٤٤ - المكتبة التجارية الكبرى.

قال الإمام الرازي عند تفسيره للآية الأولى: (وأقول لفظ الآية مشتمل على قيود كثيرة ، كل واحد منها يوجب المبالغة في الإحسان إلى الوالدين: أحداها: أنه - تعالى - قال في الآية المتقدمة "ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا" ثم إنه تعالى أرفقه بهذه الآية المشتملة على الأعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة، فذكر من جملتها البر بالوالدين، وذلك يدل على أن هذه الطاعة من أصول الطاعات التي تقيد سعادة الآخرة.

وثانيها : أنه تعالى بدأ بذكر الأمر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى وثلاث بالبر بالوالدين ، وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة.

وثالثها : أنه تعالى لم يقل وإحساناً بالوالدين ، بل قال: "وبالوالدين إحساناً" فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام.

ورابعها : أنه قال: "إحساناً" بلفظ التتكير، والتتكير يدل على التعظيم، والمعنى: وقضى ربك أن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً عظيماً كاملاً، وذلك لأنه لما كان إحسانهما إليك قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسانك إليهما كذلك، ثم على جميع التقديرات فلا تحصل مكافأة لأن إنعامهما عليك كان على سبيل الابتداء ، وفي الأمثال المشهورة: أن البادئ بالبر لا يكافأ^(١).

ويقول تبارك وتعالى ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۗ﴾ [النساء: ٣٦]، ويقول سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي - ج ٢٠ - ص ١٨٦ - ١٨٧ - ط الثالثة - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴿الأحقاف: ١٥﴾، ويقول سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه قال سألت رسول الله ﷺ أى العمل أحب إلى الله قال: "الصلاة على وقتها قلت ثم أى قال بر الوالدين قلت ثم أى قال الجهاد فى سبيل الله" رواه البخارى ومسلم^(١).

٣- العلاقة بين ذوى الأرحام : لما كانت العلاقة بين ذوى الأرحام تشوبها بعض المكدرات بسبب التقارب والاحتكاك، حرص الإسلام حرصاً بليغاً على أن يغرس السماحة والوفاق بين ذوى الأرحام، حيث أن العلاقة بين الأقارب تمثل مرحلة أساسية من مراحل بناء المجتمع، وكما سبقت الإشارة إلى أن الإسلام أهتم اهتماماً لايقاً بكل مراحل تكوين المجتمع، ولم يغفل مرحلة لحساب مرحلة أخرى، وهذه هى سمة وحقيقة منهج الله تعالى لإصلاح خلقه، وإذا نظرنا إلى سماحة الإسلام، نجد الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى اهتمت بتقوية هذه العلاقة وإصلاحها:

ومن الآيات القرآنية: قول الله تبارك وتعالى: ﴿.. وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وقوله سبحانه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقوله جل شأنه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى - كتاب البر والصلة وغيرهما - الترغيب فى بر الوالدين وصلتها - ج ٣ - ص ٢١٣ - مكتبة شباب الأزهر.

أَنْ تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]، وقوله عز من قائل: ﴿فَاتَّذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨]، وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، ومن هذه الآيات الكريمات قول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَالِ الَّذِينَ إِخْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ..﴾ [النساء: ٣٦]، فجميع هذه الآيات وغيرها من الآيات القرآنية الأخرى تدعو دعوة قوية إلى أن يسود العفو والتسامح والوفاق والوئام - العلاقة بين ذوى الأرحام ، لكى تتسجم هذه المرحلة المجتمعية مع ما قبلها وما بعدها من المراحل البنائية للمجتمع.

وبالنسبة للأحاديث النبوية - بخصوص هذه العلاقة - فهى من الكثرة بمكان، ولكنى أذكر بعضاً منها:

عن انس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: "من أحب أن يبسط له فى رزقه ويُنسأ له فى أثره فليصل رحمه"^(١)، وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: "ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها"^(٢).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى، وأحسن إليهم ويسيئون إلى، وأحلم عنهم

(١) صحيح البخاري بحاشية السندي - كتاب الأدب - باب من بسط له فى الرزق بصلة الرحم - ج٤ - ص٤٩ - دار إحياء الكتب العربية. وصحيح مسلم بشرح النووى - نفس التحرير السابق - ج١٦ - ص١١٤ - مطبعة دار الفكر.

(٢) صحيح البخارى - كتاب الأدب - باب ليس الواصل بالمكافئ - ج٤ - ص٥٠ .

ويجهلون على، فقال: "إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المنّ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك"^(١).

وأخرج البزار عن جابر رضى الله عنه أن جويرية رضى الله عنها قالت للنبي ﷺ: إني أريد أن أعتق هذا الغلام، قال: "أعطه خالك الذى فى الأعراب يرعى عليه فإنه أعظم لأجرك"^(٢).

هذه بعض آيات القرآن الكريم وبعض أحاديث الرسول ﷺ والتى حرص كل منها على تقوية وإنماء العلاقة الصالحة بين ذوى القربى، والدعوة إلى تعاهدها بالرعاية والتغاضى عن بعض السلبيات لا لشيء من غرض أو هوى، وإنما ابتغاء مرضاة الله عز وجل وطمعاً فى عظيم مثوبته وكريم عطائه.

(١) صحيح مسلم بشرح النووى - كتاب البر والصلة والآداب - باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها - ج ١٦ - ص ١١٥ .
(٢) حياة الصحابة - محمد يوسف الكاندهلوى - ج ٢ - ص ٥١٩ - مكتبة الدعوة الإسلامية.

المطلب الثانى

سماحة الإسلام فى العلاقة بين المسلمين

اهتم الإسلام اهتماماً واضحاً بأن تسود السماحة والعمو والحلم العلاقة بين جميع فئات المجتمع الإسلامى، وخاصةً وبدرجة أوضح بين الفئات التى تحتاج إلى قدر أوفر من التسامح والعمو.

ومن هذه الفئات ، والتي قد يتوهم المتوهمون أن الإسلام قد أغفلها أو لم يعطها حقها من العناية: فئة النساء والأطفال، وتوضيحاً لذلك، سيتناول هذا المطلب - بمشيئة الله تعالى - سماحة الإسلام فى العلاقة بين المسلمين من خلال النقاط التالية:

١- العلاقة بين المسلمين على وجه العموم : لقد ربط الإسلام بين المسلمين الذين يؤمنون إيماناً كاملاً، فيعملون على تنفيذ أوامر الله تعالى واجتتاب نواهيه برباط قوى متين وهو رباط الأخوة الإيمانية وقد أطلق عليها القرآن الكريم اسم الأخوة ، هذا الاسم الذى يعنى الأخوة فى النسب ، ولم يطلق عليها اسم الأخوان الذى يعنى علاقة المصاحبة والمرافقة، ليثبت أن الأخوة الإيمانية رابطة قوية مثلها مثل رابطة الأخوة فى النسب، وعبر عنها تعبيراً رائعاً يفيد الحصر ، وذلك فى قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وروى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يئتمه من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة"^(١).

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى - باب الترغيب فى ستر المسلم والترهيب من هتكه وتبعب عورته - ج ٣ - ص ١٧٥ - حديث رقم ٢ - مكتبة شباب الأزهر.

ولقد جعل الإسلام للمسلم على أخيه المسلم حقوقاً كثيرة تشير
إشارة واضحة إلى سماحة الإسلام القوية في هذه العلاقة، من هذه
الحقوق: "أن تسلم على أخيك المسلم إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته
إذا عطس، وتعوده إلى مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه إذا
أقسم، وتنصح له إذا استتصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب، وتحب
له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك، ومنها: ألا تؤذى أحداً من
المسلمين بقول ولا فعل، وأن تتواضع للمسلمين فلا تتكبر عليهم، ولا
تسمع وشايا بعضهم في بعض، ولا تبغ بعضهم ما تسمع من بعض،
ومنها: أن لا تزيد في الهجر على ثلاثة أيام لمن تعرفه، وأعلم أن هذا
الهجر إنما هو فيما يتعلق بأمور الدنيا، أما حق الدين، فإن هجران أهل
البدع والأهواء والمعاصي ينبغي ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى
الحق، بعد نصحهم وبيان الصواب لهم، ومنها: أن تخالق المسلمين
بخلق حسن، وذلك أن تعامل كلأ بحسب ما يناسبه، فإنه متى تلقى
الجاهل بالعلم، واللاهى بالفقه، والغبي بالبيان، تؤذى وتتأذى.

ومنها: أن يوقر المشايخ، ويرحم الصغار، وأن يكون مع الخلق
كافة طلق الوجه رقيقاً، وأن يفى بالعهد، وينصف الناس من نفسه، ولا
يأتى إليهم إلا ما يحب أن يؤتى به"^(١).

ومن الأحاديث النبوية التي ترشد إلى هذه الحقوق: ما روى عن
البراء بن عازب رضى الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: بعبادة

(١) راجع توجيهات للدعاة والمصلحين في ضوء هدى إمام المرسلين صلى الله عليه
وسلم د/ أحمد عبد المبدى أحمد - ص ١٩٦ - ط الأولى - مطبعة الحسين الإسلامية.

المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار القسم ..^(١).

وما روى عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: "والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"^(٢).

٢- العلاقة بنساء المسلمين : لا شك أن النساء فى أى مجتمع يمثلن الجانب الآخر منه، وفى المجتمع الإسلامى هن مكلفات بكثير من التكاليف التى كُلف بها الرجال ، كما أنهن يقمن ببعض الواجبات الاجتماعية التى يستطيعها الرجال.

ولقد كرم الإسلام المرأة فى كل مراحل حياتها، فقد كرمها بنتاً وأختاً وزوجة وأماً، وحفظ لها إنسانيتها، وحافظ عليها من كل ما يחדش حياءها أو يسئ إلى عفتها وكرامتها. ودعا إلى حسن معاملتها، ومما يدل على ذلك - إلى جانب بعض الآيات القرآنية التى ورد ذكرها فى

(١) صحيح البخاري بحاشية الندى - كتاب الاستئذان - باب إفشاء السلام - ج ٤ - ص ٨٧.

(٢) سنن ابن ماجه - ٣٣ كتاب الأدب - باب إفشاء السلام - الحديث رقم ٣٦٩٢ - ص ١٢١٧ - مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

النقطة الأولى من المطلب الأول - بعض الأحاديث التي وردت عن الرسول ﷺ ومنها: ما روى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "خياركم خياركم لنسائهم"^(١).

وروى عن انس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "حُبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجُعِل قرة عيني في الصلاة"^(٢).

وروى عن أم العلاء رضى الله عنها قالت: عادنى رسول الله ﷺ وأنا مريضة، فقال: "أبشرى يا أم العلاء فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياها كما تذهب النار خبث الذهب والفضة"^(٣).

فهل يوجد ما يشير إلى السماح في معاملة النساء أكثر وأبلغ

من تعبيرات الخيرية والحب وعبادة النبي ﷺ لمرضى النساء؟؟

٣- العلاقة بأطفال المسلمين : الطفولة مرحلة هامة وشريحة مهمة من شرائح المجتمع، فلو نالت هذه المرحلة حقها من التربية السليمة، والتعاهد المستمر بالتوجيه والتهديب، لأعطت المجتمع جيلاً صالحاً يساهم في إصلاح المجتمع وتنميته والارتقاء بشئونه في جميع المستويات.

(١) المرجع السابق - ٩ كتاب النكاح - ٥٠ باب حسن معاشره النساء - حديث رقم ١٩٧٨ - ج١ - ص ٦٣٦ .

(٢) سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي وحاشية السندي - كتاب عشرة النساء - باب حب النساء - ج٧ - ص ٦١ - دار الحديث.

(٣) سنن أبى داود - كتاب الخراج والإمارة والفئ - باب عبادة النساء - حديث رقم ٣٠٩٣ - ج ٣ - ص ١٨٠ - دار الحديث.

ولأهمية هذه المرحلة اهتم الإسلام بالأطفال وأرشد إلى الأسلوب الذى يتناسب معهم، وهو الأسلوب الذى يحتوى على اللطف والتسامح، يفهم ذلك من قول الله تعالى على لسان لقمان الحكيم، وهو يوجه ابنه التوجيه السليم إذ يناديه بلطف وحنان: ﴿وَإِذْ قَالَ لَقْمَانُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقد وردت أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ تدل دلالة واضحة على هذا الأسلوب الرحيم منها:

"عن أنس رضى الله عنه أنه كان يمشى مع رسول الله ﷺ فمر بصبيان فسلم عليهم"^(١).

وروى ابن ماجة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: "أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم"^(٢).

وجاء فى صحيح الإمام مسلم - رحمه الله عن أبى قتادة الأنصارى رضى الله عنه قال: رأيت النبى ﷺ يؤم الناس وأمامة بنت أبى العاص، وهى ابنة زينب بنت النبى ﷺ على عاتقة فإذا ركع وضعها، وإذا رفع من السجود أعادها"^(٣).

هذه توجيهات نبوية: قولية وعملية ملينة بالسماحة واللطف والعطف فى العلاقة مع الأطفال بين منظومة توجيهات المنهج الإسلامى الذى ارتضاه الحكيم العليم اللطيف الخبير الذى أنزله الله على رسوله ﷺ ولم يجعل فيه عوجاً.

(١) صحيح مسلم بشرح النووى - كتاب السلام - باب استحباب السلام على الصبيان - ج ٤ - ص ١٤٩ .

(٢) الترغيب والترهيب للمنذرى - ج ٣ - ص ٨٦ - ٨٧ .

(٣) صحيح الإمام مسلم بشرح النووى - كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز حمل الصبيان فى الصلاة - ج ٥ - ص ٣١ .

المطلب الثالث

سماحة الإسلام فى العلاقة مع غير المسلمين

الإسلام هو دين الرحمة الذى ختم به الرحمن الرحيم رسالاته إلى البشر، ورسول الإسلام الذى جعله الله تعالى خاتماً لرسله وأنبيائه، هو رحمة الله للعالمين، فهو ﷺ رحمة بطبعه وسلوكه ومعاملته، وهو رحمة بدعوته وبكل ما اشتملت عليه، ولا أدل على هذه الحقيقة من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله تعالى فى شأن الدعوة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وسماحة الإسلام فى العلاقة مع غير المسلمين ، تتمثل مع شريحتين من شرائح المجتمع، وهما: أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، وغيرهم من الكافرين:

١- علاقة المسلمين مع اليهود والنصارى: يحرص الإسلام على أن يسود السلام العالمى بين المسلمين وبين الشعوب كلها ، ويحرص بشكل أشد على السلام بين المسلمين وبين من يؤمنون برسالة الله ولا ينكرون الوحى، وإن اختلفت صور إيمانهم عن إيمان المسلمين.

يحدد القرآن الكريم هذه النظرة فيما يختص باليهود في قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحِقَّتْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَآخِشُونِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وفيما يختص بالنصارى يقول عز وجل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَآيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦-٤٧].

ولقد ضرب الرسول ﷺ وصحابته رضی الله عنهم أروع الأمثلة للسماحة في علاقة المسلمين باليهود والنصارى ومن هذه الأمثلة : ما روى عن أنس رضی الله عنه أن غلاماً من اليهود كان مرض، فأتاه النبي ﷺ يعبده، فقعده عند رأسه، فقال له: أسلم فنظر إلى أبيه وهو عند رأسه فقال له أبوه: أطع أبا القاسم، فأسلم، فقام النبي ﷺ وهو يقول: "الحمد لله الذي أنقذه بي من النار" (١).

كان النبي ﷺ يحضر ولائم أهل الكتاب ويغشى مجالسهم، ويواسيهم في مصابهم، ويعود مرضاهم، ويعاملهم بكل أنواع المعاملات التي يتبادلها المجتمعون في جماعة، يحكمها قانون واحد، وتشغل مكاناً مشتركاً، فقد كان ﷺ يقترض منهم نقوداً ويرهنهم متاعاً، ولم يكن ذلك

(١) سنن أبي داود - كتاب الخراج والأمانة والقي - باب في عيادة الذمي - حديث رقم

عجزاً من أصحابه رضوان الله عليهم عن إقراضه، فإن بعضهم كان ثرياً، وكلهم يتلطف على أن يقرض رسول الله ﷺ بل كان يفعل ذلك تعليماً للأمة، وتثبيناً نملياً لما يدعو إليه من سلام ووثام، وتدليلاً على أن الإسلام لا يقطع علاقة المسلمين مع مواطنيهم من غير دينهم^(١).

وقد فهم الصحابة رضى الله عنهم هذا المنهج المتسامح مع اليهود والنصارى، فساوروا على هذا النهج الحكيم.

ففي خلافة أبي بكر الصديق رضى الله عنه عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصرأ يتحصنون فيه، وعلى أن لا يمنعوا من ضرب نواقيسهم، أو إخراج الصلبان في يوم عيدهم، على أن لا يعينوا كافرأ على مسلم، ولا يتجسسوا لحساب الكفار على المسلمين، ونص في المعاهدة على أن الجزية يعفى منها الشيخ الذي عجز عن العمل، أو أصابته آفة، أو كان غنياً فافتقر، وليس ذلك فحسب، بل يعال هو وأولاده من بيت مال المسلمين ما أقام بدار الإسلام^(٢).

ثم جاءت سيرة المسلمين الأولين الذين تفرقوا في أنحاء الأرض على خير ما تكون السماحة، فعاشروا أبناء الأمم من الروم والفرس والترك والديلم والبربر، دون أن يتخرجوا بنمط من أنماط المعيشة، ولا بأسلوب من أساليب العرف ما لم يكن فيه مساس بالعقيدة والعبادة^(٣).

(١) راجع سماحة الإسلام، د/ أحمد محمد الحوفي - ص ٦٦ - ط الثانية - مطبعة نهضة مصر.

(٢) توجيهات للدعاة والمصلحين، د/ أحمد عبد المبدى أحمد - ص ٢١٤ .

(٣) التفكير فريضة إسلامية - الأستاذ العقاد - ص ١٤٦ - م دار نهضة مصر.

وهذا المسالك المتسامح ليس بمستغرب عن الإسلام، فهو دين الرحمة، ونبية رسول الرحمة، وكل من يتبع منهجه تقوده الرحمة إلى صراط الله المستقيم في كل المجالات وسائر المعاملات.

٢- علاقة المسلمين مع المشركين : الإسلام دين الرحمة الشاملة للعالمين، فلا فرق في رحمته بين خلق الله، فهو يدعو أتباعه أن يعاملوا كل من لا يعتدى عليهم ولا على دينهم بالبر والقسط، يتضح ذلك من قول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

فالعلاقة المسلمين مع الكافرين تنسم في جوهرها بالسماحة والسلام طالما لم يحدث منهم اعتداء على العقيدة أو الأوطان. والصلح مع العدو أصل عام مقرر في الإسلام، وأما الحرب فهي أمر طارئ على أصل العلاقات السلمية مع غير المسلمين، والقرآن الكريم يقرر هذا الأصل بقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١]، وقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال:٦١]، والأمر في ذلك للوجوب إذ لا صارف له عن حقيقة مقتضاه، وهو قبول المسالمة، والمسالمة هي طلب السلامة من الحروب وآلامها، ولذلك قال بعض الفقهاء: إن المقصود من الجهاد هو جهاد الوسائل لا الغايات ،

بمعنى أن المقصود نشر الدعوة وتبليغها سلمياً، فإذا تحقق هذا الغرض كان مقدماً على الجهاد بالقتال^(١).

ومما يدل على العلاقة المتسامحة مع الشركين صلح الحديبية، يقول الأستاذ وحيد الدين خان: "فصلح الحديبية عام ٦٢٦م هو من أهم أحداث الكفاح الاجتماعي الإسلامي، وتقول سورة الفتح عن هذا الصلح: ﴿وَعَدُّكُمْ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠]، وهذه الآية التي تتعلق بصلح الحديبية توضح أنه كما يوجد صراط مستقيم للعبادات وللأخلاق فهناك - أيضاً - صراط مستقيم لأمر الصلح والأمن والقتال"^(٢).

فسماحة الإسلام مع كل فئات المجتمع - بدرجة من الوضوح - لا يستطيع أحد إنكارها إلا إذا كان مغرضاً أو صاحب هوى تقول الدكتور زيغريد هونكة في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب)، ولعل أهم انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم ، حتى إن الملك الفارسي (كيروس) قال : إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون

(١) محمد رسول الإسلام والسلام - د/ نصر فريد واصل - ص ٨٦ - سلسلة دراسات في الإسلام - العدد ١٨٠ - بصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مطابع الأهرام التجارية.

(٢) واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام - وحيد الدين خان - ترجمة د/ سمير عبد الحميد إبراهيم - ص ٨٦ .

مخربين، فما يدعيه من اتهامهم بالتعصب، ما هو أسطورة من نسيج الخيال، تكذبها آلاف الأدلة^(١).

فسماحة الإسلام حقيقة منهجية وظاهرة تاريخية تظهرها كل مراحل التاريخ المتعاقبة، فسماعته قوية شامخة لا يستطيع النيل منها أى مغرض أو صاحب هوى.

(١) راجع السماحة فى الإسلام والمسيحية - إبراهيم أحمد الوقفى - ص ٦٥ - م دار الفكر العربى.

أهم المراجع

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : كتب التفسير :

- ١- تفسير القرآن الكريم للإمام الحافظ ابن كثير - مكتبة التراث الإسلامي.
- ٢- التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي - دار إحياء التراث العربي.
- ٣- التفسير الوسيط للقرآن الكريم - د/ محمد سيد طنطاوي - مطبعة السعادة.

ثالثاً : كتب الحديث :

- ٤- الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى - مكتبة الدعوة الإسلامية.
- ٥- سنن أبي داود - دار الحديث.
- ٦- سنن ابن ماجة تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء الكتب العربية.
- ٧- سنن النسائي - دار الحديث.

رابعاً : معاجم اللغة ودوائر المعارف.

- ٨- دائرة معارف القرن العشرين - محمد فريد وجدي - دار المعرفة - بيروت.
- ٩- لسان العرب لابن منظور - دار صادر - بيروت.
- ١٠- المصباح المنير للرافعي - تحقيق د/ عبد العظيم الشناوي - دار المعارف.

١١- المعجم الوجيز مجمع اللغة العربية - مطابع وزارة التربية والتعليم

خامساً : الكتب الأخرى :

- ١٢- إحياء علوم الدين الإمام الغزالي - المكتبة التجارية الكبرى.
- ١٣- التفكير فريضة إسلامية - العقاد - دار نهضة مصر.
- ١٤- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق - ابن مسكويه - المطبعة المصرية.
- ١٥- توجيهات للدعاة والمصلحين - د/ أحمد عبد المبدى أحمد - مطبعة الحسين الإسلامية.
- ١٦- حياة الصحابة - محمد يوسف الكاندهولى - مكتبة الدعوة الإسلامية.
- ١٧- سماحة الإسلام - د/ أحمد محمد الحوفى - مطبعة نهضة مصر.
- ١٨- السماحة فى الإسلام والمسيحية - إبراهيم أحمد الوقى - دار الفكر العربى.
- ١٩- محمد رسول الإسلام والسلام - د/ نصر فريد واصل - مطابع الأهرام التجارية.
- ٢٠- معلمة الإسلام - أنور الجندى - دار الصحوة.
- ٢١- منهج الإسلام فى العقيدة والعبادة والأخلاق - د/ أحمد عمر هاشم - دار المنار للنشر والتوزيع.
- ٢٢- واقعنا ومستقبلنا فى ضوء الإسلام - وحيد الدين خان - دار الصحوة.

الدولة العثمانية وتسامحها

مع غير المسلمين

د. هدى درويش^(*)

مقدمة :

نزلت الرسالات السماوية كمنظومة سماوية واحدة منذ نشأة الخلق حتى نهاية الكون، وتمت برسالة الإسلام لتقر بما جاء قبلها من رسالات وأنبياء ورسول، وتؤمن بكل ما أنزل من قبل الله تعالى منذ خلق آدم عليه السلام حتى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين.

ومن هذا المنطلق الإيماني أوجب الله تعالى على المسلمين الإيمان والتسليم بالرسالات السماوية التي أنزلت على جميع الأنبياء الذين كرمهم الله، وبهذا تحققت رحابة الإسلام وسماحة الإسلام وتوقير الإسلام لجميع الأنبياء وأمهم وأقوامهم الذين أطاعوهم واتبعوهم وانقادوا لهم وحذوا حذوهم، وساروا على نهج شريعتهم دون تبديل أو تحريف.

من هنا جاء احترام المسلمين لأهل الكتاب ومعاملتهم المعاملة الكريمة طاعة وتكريماً وتوقيراً للإسلام وقرآنه وسنته الشريفة. والقرآن الكريم ينخر بالآيات الشريفة التي تبرز وجوب معاملة المسلمين لغير أبناء دينهم، حتى وقت المجادلة التي يمكن أن تخرج

(*) مدرس الأديان المقارنة- معهد للدراسات والبحوث الآسيوية. جامعة الزقازيق

بالإنسان إلى بعض الحدة في القول، فنجد الله سبحانه وتعالى يوصي المسلمين باختيار الألفاظ الحسنة وانتقاء أحسن الكلمات، ويتمثل ذلك في قوله تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وبهذا يظهر شمولية الخطاب الذي يشمل الناس كافة سواء كانوا على الإسلام أم غيره، وتلك هي فطرة الإسلام وحضارته مع الآخر. وكان سبب اختيارنا الدولة العثمانية نموذجاً لسماحة الإسلام أن الدولة العثمانية مثلت دولة الخلافة بعد الدولة العباسية، وعاشت وتنوعت على أرضها مختلف الطوائف والملل غير الإسلامية مدة ستة قرون، تمتعت فيها تلك الطوائف بالمعاملة الكريمة وفقاً للمبدأ الإسلامي ﴿لا إكراه في الدين﴾.

فعاش النصارى واليهود والأرمن وكافة الملل والطوائف إلى جانب المسلمين مستظلين بالحماية والرعاية في أداء عبادتهم، وتمتعين بكافة الحقوق المدنية والأمنية حتى إنهم شهدوا بحسن ضيافتها لهم وفتح أبوابها لهم على مصراعها ومعاملتهم المعاملة الإسلامية السمحة الكريمة معهم.

أولاً : الدولة العثمانية كوارثة للخلافة الإسلامية :

مثلت الدولة العثمانية بالنسبة للغرب الرمز المسجد للإسلام، كما مثلت في الوقت نفسه مصدر الرعب في العالم، فكانت أكبر دولة إسلامية قامت في التاريخ من حيث المساحة التي امتدت في قارات العالم الثلاث: آسيا وأفريقيا وأوروبا، أو الزمان الذي امتد بها إلى ستة

قرون بدءاً من القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن العشرين، حيث امتدت فتوحاتها في الأناضول والبلقان ووصلت إلى فارس وما بين النهرين والشام ومصر والحجاز واليمن والعراق، وبسطت نفوذها على طرابلس وتونس والجزائر، ثم زحفت نحو أوروبا حتى وصلت إلى مشارف فيينا عاصمة النمسا، كما امتد نفوذها إلى بلغاريا ورومانيا واليونان ويوغسلافيا وألبانيا والمجر وشبه جزيرة القرم وبعض جزر بولندا، ونتيجة لهذا التوسع أصبحت الدولة تحكم شعوباً من مختلف الجنسيات واللغات والديانات.

وكانت الجنسيات تتشكل من الأتراك العثمانيين والأكراد والعرب والتركمان والشراكسة والبربر والسريان والأرمن والألبان واليونانيين وغيرهم، أما اللغات فاختلفت بين السريانية واللاتينية والعبرية والعربية والتركية والكردية واليونانية والمجرية.

عاش على الأراضي العثمانية المسلمون السنيون، وبعض طوائف من الشيعة إلى جانب الطوائف المسيحية من الأرثوذكس والكاثوليك والسريان والأرمن والأقباط والبروتستانت واليهود^(١).

ومنذ نشأة الدولة اعتنق أمراؤها وسلطانها الإسلام منذ عهد مؤسسها الأمير عثمان، الذي أحب الإسلام حباً شديداً، وأخضع حكمه لمشورة فقهاء المسلمين وعلمائهم، وتميز عهده بالعدل والاستقامة بحيث توازنت العاطفة الدينية الجياشة نحو الإسلام مع الروح العسكرية التي

(١) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها، مكتبة الأنجلو،

القاهرة، ١٩٩٢م. ص ٩٠-٩٣ (بتصرف)

أخذت شكل الجهاد من أجل الإسلام، فلازمت تلك الحالة الدولة طوال تاريخها الذى نتج عنه انتشار الإسلام فى مختلف بقاع العالم.

وكانت الهيئة الإسلامية فى الدولة تتكون من المفتى ويطلق عليه شيخ الإسلام، وكان له نفوذ فى الدولة، وكان السلاطين يحرصون على تدعيم سلطته ويستشيرونه فى أمورهم، ويخضعون لرأيه حتى وقت الحروب التى كانوا يخضونها، فكان المفتى هو الذى يجيز لهم الخوض فى الحرب سواء كانت هجوماً أم دفاعاً.

ومن سمات الطابع الإسلامى الذى اتسمت به الدولة عنايتها الفائقة بتشييد المساجد، فكان السلاطين ينفقون عليها أموالاً طائلة بهدف كسب قلوب الشعب عن طريق الدين (١).

ومن المظاهر العامة الأساسية للإسلام فى الدولة تطبيقها للشريعة الإسلامية والتمسك بالتقاليد الإسلامية مثل احترام شهر رمضان احتراماً شديداً (٢).

وكانت قوانين الدولة التى وضعت فى عهد السلطان سليمان والتى عرفت بقانون نامه تتفق مع الشريعة الإسلامية، وتحرص على اتباع أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومن جانب آخر كانت الدولة تتولى تنظيم شئون الحج والاهتمام به اهتماماً شديداً باعتباره ركناً من أركان الإسلام، كما اتخذ التيار الصوفى السنى وعلماء المتصوفة فى الدولة دوراً مميزاً فى حياة عامة

(١) محمد جميل بيهيم: العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب، المطبعة الوطنية، بيروت، ١٩٥٧، ص ١٢٥.

(٢) عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ص ٥٦ - ٥٧.

الشعب وكانت الدولة تمدهم بالأموال والى السلاطين، ويولونهم عناية خاصة بهم فى مجالسهم ويخضعون لمشورة المشايخ المتصوفة فى إدارة شئون الدولة.

وكانت من التقاليد الرسمية للسلاطين عند تنصيبهم الحكم وتوليئهم العرش أن يذهب السلطان فى موكب حافل إلى مسجد أبى أيوب الأنصاري فى إستانبول ويتسلم هناك من يد شيخ الطريقة المولوية سيف السلطان عثمان الأول، ثم يتولى مهام منصبه كسلطان للدولة (١). ويصوّر الجبرتي عظمة إسلام الدولة العثمانية التى عاشت ستة قرون تحت ظل الإسلام: "إن اهتمام السلاطين العثمانيين بإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية وتعظيم العلماء وأهل الدين، وخدمة الحرمين الشريفين والتمسك فى الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع، أدى إلى تحصين دولتهم، وطول مدتهم، وهيبة الملوك لهم، كما انقاد لهم المالك والمملوك" (٢).

ومنذ ظهور الدولة شهد العالم عهداً جديداً أطلق عليه عهد الهيمنة الإسلامية، مع احتفاظ الديانات الأخرى بأحقيتها الدينية فعاشوا مع المسلمين جنباً إلى جنب فى ظل التسامح الديني الذى شمل جميع أرجاء الدولة.

هذا وقد اتسمت الدولة العثمانية بمبدأ التعايش السلمى، وتمتع رعاياها غير المسلمين بالحرية الدينية وممارسة شعائهم فى الكنائس والمعابد التى كانت منتشرة فى كل مكان، وتحملت الدولة مسئولية حمايتهم وحماية ممتلكاتهم.

(١) هدى درويش: الإسلاميون وتركيا العلمانية، دار الآفاق العربية، ١٩٩٨م، ص ٢٥
(٢) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٢٩٧هـ (٢١/١).

وكانت الدولة تنظر إلى هؤلاء الرعايا على أساس المساواة فى الحقوق والواجبات بغض النظر عن دياناتهم، فساوت بين المسيحية واليهودية إلى جانب الإسلام، وهو الأمر الذى افتقدته أكثر شعوب العالم فى ذلك الوقت، وبهذا حققت الدولة العثمانية ما لم تحققه أية دولة أوروبية وذلك بسبب التزامها بتطبيق الشريعة الإسلامية فى معاملة رعاياها.

وكان رعايا الدولة غير المسلمين يخضعون لنظام الملل، الذى يقوم على تصنيف رعايا الدولة على أساس المذهب الدينى لهؤلاء الرعايا، وكان لكل ملة رئيس تابع لكل ملة ينظر فى المسائل الدينية، ويفصل فى قضايا الأحوال الشخصية دون أى تدخل من الدولة، وقد كفل هذا النظام للرعايا حق الاستقلال الذاتى^(١). كما كان لكل ملة حقها فى إصلاح وترميم الكنائس وبناء المدارس وامتلاك الأراضى والعقارات.

وكان من أهم هذه الملل الروم الأرثوذكس أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية، وكان مقرها إستانبول ورئيسها كان يسمى "البطريرك" ويطلق عليه بطريرك "البنار" نسبة إلى بنى البنار الذى كانت تقيم فيه هذه الملة، وأتباعه أطلق عليهم "البناريون"، وكان لهذه البطريركية صلاحيات واسعة دون أى تدخل من الحكومة. وتأتى فى المرتبة الثانية ملة الروم الكاثوليك ثم ملة الأرمن ثم ملة اليهود.

(١) عبد العزيز الشناوي: مرجع سابق، (٦٨/١).

وكان للدولة العثمانية أسبقيتها على كافة الدول الأوروبية المعاصرة لها باستقرار رعاياها على كافة المستويات سواء كانت يهودية أم مسيحية أم مذاهب أخرى حيث عاشوا إلى جانب مسلمي الدولة تحت ظل المساواة والعدالة الاجتماعية نتيجة للالتزام الدولة بأحكام القرآن الكريم وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.

ثانياً : معاملة الدولة العثمانية للكنيسة :

عاش الملايين من المسيحيين من جميع المذاهب تحت مظلة الدولة العثمانية التي لم تحاول في يوم من الأيام حملهم أو إجبارهم على دخول الإسلام تطبيقاً للمبدأ التشريعي "لا إكراه في الدين" .

وترجع صلة العثمانيين بالكنيسة إلى عهد السلطان محمد الفاتح عند فتحه للقسطنطينية، حيث أمر جنوده أن يتبعوا الشريعة الإسلامية في فتحهم المدينة، وأن يتجنبوا المساس بالكنائس والمعابد بأذى، وألا يمسوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاثلون^(١).

وعقب فتح القسطنطينية أمر السلطان الفاتح بانتخاب بطريرك جديد، فانتخب رؤساء الكنيسة والرهبان بالإجماع "جورجيوس سكولاريوس" بطريركاً ولقب بـ "جناديوس" وقد منحه السلطان إدارة شئون النصارى روحياً ومذهبياً، كما منحه لقباً عالياً وهو "أس الملة".

(١) على حسون : الدولة العثمانية ، المكتب الإسلامي، بيروت ، ١٩٨٣م، ص ٣٩ .

وبهذه الصلاحيات أصبح "جناديوس" رئيساً لطائفة الأرثوذكس داخل الكنيسة وخارجها بتأييد من الدولة التي منحت سلطات الوزير في الحكومة العثمانية، فكانت سلطته مطلقة، وكان له حق التحدث في الديوان مدافعاً عن مصالح ملته (١).

وكان لهذا البطريك بلاط خاص به لا يستطيع أحد مقابله إلا عن طريق هذا البلاط وحصوله على إذن خاص، وكان البطريك يحمل على صدره صورة الصقر وهو الشعار البيزنطي (٢).

وكان البطريك هو المسئول أمام الدولة عن طائفته من خلال القسم الذي كان يقسمه عند اختياره لهذا المنصب، ويعرف هذا القسم باسم "يمين نامه" ويتلوه أمام السلطان في حضور خمسة أشخاص، ويتضمن هذا القسم "أن يظل مخلصاً للسلطان، وينفذ قوانين الدولة العثمانية ويحترمها، ولا يخونها، وأن يؤدي عمله على أتم وجه، ويكتب للدولة عن كل من تبدر منه خيانة للبلاد".

والواقع أن بعض هؤلاء تناسى هذه المسئولية مستنداً على الحرية التامة التي كفلتها الدولة لهم وسماحة الدولة لإدارة مصالحهم دون تدخل مما أدى بنصارى الروم التابعين للدولة العثمانية أوروبا إلى العمل على الاستقلال عن الدولة والانفصال عنه مما تسبب في تجزئة الدولة ومن ثم انهيارها (٣).

(١) ثريا شاهين: دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ترجمة محمد حرب، جدة، ١٩٩٧م، ص ٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥.

(٣) ثريا شاهين: مرجع سابق، ص ٢٧ - ٢٩.

وقد تنوعت طوائفهم بين الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس واليسوعيين والعازرين والكبوشيين والكرمليين والبرسببتييريين الذين وفدوا من إنجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية (١).

واستطاع السلطان محمد الفاتح أن يضم جميع هذه الطوائف تحت إدارة كنائس ارتبطت بالسلطة المركزية، حيث قام بعد فتحه إستانبول بمنح مقام البطريركية لجينانديوس الثاني، وبتطيريركية أخرى فى أريوان والقدس وأخرى ثالثة فى إستانبول كما تم ربط الكنائس الحبشية والقبطية والسريانية ببطريركية الأرمن فى إستانبول (٢).
ومن ناحية أخرى منح السلطان سليم الأول بطريركية الروم فى إستانبول لقب "أوكونيك" بمعنى عالمية.

وقد أظهرها هذا اللقب على شكل بابوية فكانت نواة لمبدأ تحقيق اليونان الكبرى، وقد استخدمت هذه البطريركية من الدين ستاراً لتكثيف نشاطها من أجل تحقيق مبدأ اليونان الكبرى فوق أراضى الأناضول، وقامت بتنظيم حملات رعاية مكثفة لتوحيد الأثوذكس فى العالم ضد الدولة العثمانية لتحقيق هذا الهدف (٣).

ونتيجة لهذا انتشرت المدارس الرومية، واستخدمت فيها اللغة اليونانية كلغة رئيسية، وفرضت سيطرتها على معظم بلاد البلقان أوائل

(١) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (٩٨/١) .

(٢) أكمل الدين إحسان : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، م ٢ ، إستانبول ، ١٩٩٩م ، ص ١٦٥ .

(٣) ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص ٣٤ .

القرن ١٩، وانتشر فيها الرهبان والتجار الروم والمعلمون أيضاً، الأمر الذى جعلهم يسيطرون على مجال التعليم، ويلقنون تلك المناطق فكرة المبدأ اليونانى والتقاليد اليونانية، وأصبحت مواعظ ودروس القسس فى الكنائس هو كيفية توجيه رعايا الدولة نحو الحرية والاستقلال ، وفى المدارس الرومية كانت تمنع تدريس اللغة العثمانية منعاً باتاً.

وقد أعطت الدولة العثمانية لرعاياها الروم سلطات لا حد لها، حيث تركت لهم أمور التجارة والبرية والاستيراد والتصدير فأحكموها السيطرة عليها، كما كان أغلبية العاملين فى الأسطول العثماني من الروم.

وفى عهد التنظيمات الخيرية أصدر السلطان عبد الحميد الأول فرماناً بشأن الإصلاحات التى أدخلها فى الدول، تضمنت احترام الحريات العامة والممتلكات والأشخاص بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية وأصلهم القومي ومساواة جميع الأديان أمام القانون.

كما أصدر السلطان محمود الثانى مرسومين خاصين بمعاملة أهل الذمة الذين يقيمون فى الدولة من اليهود والنصارى، جاء فى الأول: تبعاً لأصول الشريعة الإسلامية صدر تصريح يقضى بالمساواة فى الحرية الدينية لكل المواطنين فى تركيا الذين يتبعون أصول الديانات الثلاث. وفى الثانى: لكى تستطيع كل جماعة دينية أن تمارس فى حرية كاملة تعاليم دينها دون تدخل، نصرح بأن لكل مواطن أن يعبد الله تبعاً لأوامر دينه، وألا يجبر أى شخص على ترك دينه ومعتقده^(١).

(١) أحمد نوري النعيمي: أثر الأقلية اليهودية فى سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، رئاسة جامعة بغداد، مركز الدراسات الفلسطينية ، ١٩٨٢م ، ص ٨١ .

ومن أهم الامتيازات التي كفلتها الدولة لرعاياها غير المسلمين

ما يلي:

- ١- انتخاب بطريرك (رئيس ديني) لكل ملة.
- ٢- حرية ممارسة عباداتهم.
- ٣- حقهم في إصلاح وترميم الكنائس.
- ٤- الحق في إنشاء وبناء كنائس جديدة.
- ٥- الحق في إلحاق أبنائهم في مدارس الدولة الحكومية والعسكرية والمدنية.
- ٦- أحقية إنشاء مدارس خاصة بهم للعلوم والفنون والصناعات.
- ٧- الحق في امتلاك العقارات.
- ٨- اتباع مبدأ المساواة بين الطوائف غير المسلمة مع المسلمين في أمور الضرائب والقضاء والواجبات المدنية^(١).

وتطبيقاً لمبدأ المساواة الذي اتخذته الدولة عن الشريعة الإسلامية في معاملة أهل الذمة والرعايا غير المسلمين المقيمين في أراضيها، فإنها منحت البطريركية عديداً من المناصب الدينية والمدنية، فاحتل هؤلاء الرعايا وظائف مهمة في ديوان السلطان، وكان الأروام يقومون بأعمال الترجمة في الديوان، مما كان له تأثير مباشر على الدولة حيث استخدمها بعضهم في الإساءة إلى الدولة، فكان منهم من يعمل جاسوساً لحساب الروس ضد الدولة.

(١) عبد العزيز الشناوي: مرجع سابق، ص ٩٦ - ٩٨

وعاش هؤلاء عهداً طويلاً تحت السيادة العثمانية في ظل أحكام الشريعة الإسلامية في إطار قانون أهل الذمة.

والحق أن تاريخ هذه الطوائف لم يحظ باهتمام من الباحثين والمؤرخين، ولم تظهر عنهم دراسات وبحوث مونوجرافية.

المدارس التبشيرية ودورها في الدولة :

كانت المدارس الخاصة بالرعايا غير المسلمين في الدولة تركز على حق الاستقلال القانوني والقضائي في إطار أحكام الشريعة طوال تاريخ الدولة العثمانية.

وقد كانت هذه المدارس تبنى في مبنى ملحق بالكنيسة، وكان القساوسة يقومون بمهمة تعليم أبنائهم مثلما كان مشايخ الإسلام يقومون بتعليم المسلمين في المدارس الإسلامية.

وكان للبعثات التبشيرية نشاط مكثف في الدولة مستتراً خلف النشاط التعليمي والثقافي عن طريق إنشاء مؤسسات ومدارس ومعاهد وكليات أخذت صفة المسيحية خاصة في بلاد الشام، حيث قام البروتستانت الأمريكيون بإنشاء مدارس في بيروت والقدس في الوقت الذي اشتد فيه الخلاف بين البروتستانت والكاثوليك، ونجح الأمريكيون في تحويل عدد كبير من الكاثوليك إلى المذهب البروتستانتي عن طريق تلك المدارس وذلك خلال أعوام ١٨٣٩ - ١٨٧٣م، وتركزت جهود البعثات التبشيرية في بلاد الشام نظراً لتزايد أعدادهم في بلاد الشام إلى

جانب معرفتهم باللغات الأجنبية إلى جانب العلاقات الوثيقة بين بلاد الشام وأوروبا وتأثرهم بالحضارة الغربية والفكر الغربي.

هذه البعثات أداة في أيدي الحكومات الأوروبية لبسط نفوذها السياسي والثقافي والديني على الدولة العثمانية، الأمر الذي هدد الدولة بشكل مباشر، وأدى إلى انتزاع العديد من الولايات من أيدي الدولة. ومن ناحية أخرى استخدمت البعثات النزعة الدينية لإذكاء الروح القومية في أقطار الشرق العربي متخذين من التنصير ذريعة لإنشاء مراكز قوى داخل ولايات الدولة^(١).

وقد أقيمت أول مدرسة في القرن السادس عشر بامتياز خاص منحه السلطان سليمان القانوني لملك فرنسا فرانسوا الأول، وكانت هذه المنحة بداية لما عرف بمشكلة الأقليات وحقوق الامتيازات الأجنبية التي أحدثت في الدولة العديد من المشاكل.

وكانت المدارس المسيحية في بداية الأمر مدارس رهبانية يديرها زعماء روحانيون بهدف التعليم الديني وتنشئة رجال الدين وبعد النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ومع انثراء الذي ظهر على طائفتي الروم الأرثوذكس والأرمن بدأت تظهر مظاهر العلمنة في مفاهيم التعليم، حيث تم تأسيس مؤسسات تعليمية جديدة ليس لها علاقة بمدارس الرهبان، وكانت أول مدرسة تقام على هذا المنهج مدرسة "قورو جشمه روم مكتبي" تابعة لأثرياء الروم الذين يقيمون بحى الفنار

(١) انظر عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (١٠٦/١).

فى إستانبول وقد أصدر السلطان سليم الثالث فرماناً بافتتاحها، وتقوم بمهمة تعليم اللغة والأدب والرياضيات، وكانت بمثابة كلية كبيرة تضم داخلها مستشفى وداراً للعجزة ومدرسة للطب، وتوسعت هذه المؤسسات فى القرنين التاسع عشر، وازدادت زيادة مطردة فأقيمت جامعة بيروت الأمريكية عام ١٨٦٧م، ومدرسة طب سان جوزيف الكاثوليكية التى أقامها الفرنسيون فى بيروت عام ١٨٨٨م، وكان لتلك المدارس التبشيرية دور كبير فى ظهور حركات سياسية مناهضة للدولة العثمانية واستخدم عدد كبير منها ضد وحدة الأراضي العثمانية(١).

تمليك الأراضي والعقارات للأجانب فى الدولة :

طبقت الدولة العثمانية نظاماً خاصاً للأجانب المقيمين بالدولة، فمنحتهم حق التصرف وامتلاك الأراضي والعقارات فى جميع أنحاء الدولة عدا منطقة الحجاز، تلك الامتيازات منحت الأجانب الحق فى الإشراف على مدارسهم الخاصة دون رقابة من الدولة عليها.

الدولة العثمانية والجزية:

كان نظام الجزية الذى فرضته الدولة على المسلمين فى البلاد المفتوحة يسقط الجزية عن كل من يلتحق بالجيش الإسلامى، ومن يرفض الالتحاق بالجيش فعليه أن يدفع جزية بديلة عن اشتراكه فى الجيش.

(١) أكمل الدين احسان : مرجع سابق ، ص ٥٩٤ ، ٥٩٥ .

وأوجبت الدولة الجزية على رعاياها من أهل الكتاب مثلما يلتزم المسلمون بدفع الزكاة، حتى يتم تطبيق مبدأ التكافؤ بينهما، وتم أخذها على أقساط بهدف التيسير على من ليست لديه القدرة على دفعها بأكملها، وتم إعفاء المساكين والطاعنين في السن والرهبان^(١). وكانت جباية هذه الجزية تتم بالرفق بهم وتوخى العدل وحمائتهم بتوصية الخلفاء المكلفين بجبايتها.

اليهود في ظل الدولة العثمانية:

في زمن سلاجقة الأناضول كان اليهود يشكلون جاليات صغيرة أخذت في الازدياد بعد هجرتهم من فرنسا عام ١٣٩٤م، ومن بافيرا عام ١٤٧٠م، ثم من أسبانيا عام ١٤٩٢م، وبعد هجرتهم إلى سالونيك وأزمير وإستانبول حدث اطراد في أعدادهم، وأقيمت لهم حاخامية خاصة تربط جميع الطوائف اليهودية بالسلطة المركزية العثمانية^(٢). وقد فتحت الدولة العثمانية أبوابها على مصراعها لليهود النازحين إليها من مختلف البلاد الأوروبية الفارين من محاكم التفتيش التي خيرتهم بين النفي وبين التنصر، فكانت الدولة العثمانية هي طوق النجاة الذي عثر عليه اليهود الفارون من المعاناة التي لاقوها في تلك الشعوب.

(١) موفق بنى المرجه، صحوة الرجل الأبيض، مؤسسة صقر الخليج، الكويت ، ١٩٨٤، ص ١٧٥ .

(٢) أكمل الدين إحسان: مرجع سابق، ص ١٦٦ .

وقد قامت الدولة بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية حيث سمحت لهم بممارسة شؤونهم الدينية، ومنحت الحاخام اليهودي حق تمثيل اليهود أمام الحكومة والنظر في قضاياهم طبقاً للشريعة اليهودية^(١).

وكان من مهام الحاخام تحديد ضرائب الطائفة اليهودية التي تعيش في الدولة، وكان له الحق في اختيار الرؤساء المحليين الذين كانت لهم مكانة رسمية في الدولة، كما سمحت الدولة لهؤلاء اليهود بالإقامة في الدولة كمستوطنين، وكفلت لهم حرية العمل في الدولة في كل فروع التجارة والصناعة والعلم والطباعة، ووصلوا إلى مراكز مرموقة في الدولة، فكان منهم التجار وكبار رجال الأعمال والأطباء ومنهم أيضاً من تقلد منصب وزير المالية والأشغال والسكان، وأعطتهم الدولة حق إنشاء مدارس خاصة بهم وإدارة شؤونهم التعليمية، إلى جانب أحقيتهم في ممارسة عباداتهم وطقوسهم وإنشاء المعابد لإقامة شعائرهم الدينية فيها، إضافة إلى السماح لهم بالحج إلى الأماكن المقدسة.

وقد عامل السلاطين العثمانيون اليهود المعاملة الكريمة التي أمر بها الإسلام وفقاً للشريعة الإسلامية، ومن السلاطين الذين أحسنوا معاملة أهل الكتاب وخاصة اليهود الأمير أورخان بن عثمان ثاني حكام الدولة العثمانية ، كما أذن لهم ببناء صومعة كانت ما تزال تمارس نشاطها حتى الأربعينات من القرن العشرين.

(١) رفيع شاكرا: السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٠م، ص ٣١.

والأمير مراد الأول الذى سمح لليهود بالإقامة فى مدينة أنقرة بعدما حولها إلى عاصمة للدولة بعد بروسة وعاشت فيها أكبر الطوائف اليهودية^(١).

أما الأمير مراد الثانى فقد أعطى لليهود حق امتلاك أراضى بالدولة حيث لقبه اليهود "بالرجل الإنساني الكبير"، كما سمح بهجرة اليهود إلى الدولة بدون قيد أو شرط، وعند فتحه لأدرنه أعطى لرئيس حاخاماتها السيادة على كافة يهود الروملى^(٢).

أما السلطان محمد الثانى فاتح القسطنطينية فعلى الرغم من فتحه لروما الشرقية البيزنطية وطرابزون، وكان يلقب باسم إمبراطور الأتراك وروما الشرقية إلا أنه لم يتخذ موقفاً معادياً تجاه الأديان، فقد رحب باليهود وزادت امتيازاتهم فى عهده وسمح لهم بالهجرة إلى إسطنبول وأسكنهم فى حى خاص بهم، كما أعطى لليهود حق وضع الصور فى معابدهم، وألا يمنعوا من قراءة التوراة بشكل علنى^(٣).

وفى عهده برزت طائفة الأطباء اليهود، وأصبحت لهم شهرة واسعة، وعلى رأسهم الحكيم يعقوب الذى ادعى أنه اهتدى إلى الإسلام وكان اسمه Macstro Lacopo قيل إنه هو الذى تسبب فى مقتل

(١) أحمد عثمان : تاريخ اليهود، (١١/٣)، مكتبة الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م.

(٢) عايذة العلى: دولة المثلث بين فكي الكماشة، دار الفكر العربى، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٣٢٢ .

(٣) A.R.C. a. g. e. s. ٨٥-٨٦ .

لسلطان الفاتح، حيث وضع له السم بصورة تدرجية في الدواء مقابل رشوة^(١).

هذا وقد اشتهر السلطان محمد الفاتح بمقولته في حق اليهود التي جاء فيها "ليرتقوا منزلة العرش العالى، ويستوطنوا أفضل أرض، تحت شجر الأعناب العائدة لهم مع الفضة والذهب مع الثروة والأنعام"^(٢). أما السلطان بايزيد الثانى فكان من أكثر السلاطين تسامحاً مع اليهود فى الدولة، فقد أسكن الكثير منهم فى سلانيك وهو الذى عرض تقديم ملاذ لهم فى الدولة وأرسل ما عرف بـ "سفن الرحمة" لجلب اليهود وإيقادهم من محاكم التفتيش الأسبانية، وعبر عنهم بقوله: إننى منددهش من الذين يقولون أن فرديناند ملك أسبانيا ذكى، فهو يضعف دولته ويغنى أراضى"^(٣).

والسلطان سليم الأول أقر لزعماء اليهود الدينيين بكافة الصلاحيات وربطهم بالعاصمة إستانبول، ولقب كل زعيم منهم بلقب "تجد" أو "ريس" وأعطى كل جماعة يهودية حق حكم نفسها تحت سلطة حاخامها المحلى^(٤).

(١) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، (١٧٧/٢) مؤسسة فيصل بالتمويل ، تركيا، استانبول، ١٩٩٠م.

(٢) أحمد نورى النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٣٣ .

(٣) عايدة العلى، دولة المثلث ، دار الفكر العربى، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٣٢٢ .

(٤) كلمة السعيد حبيب: الأقليات والممارسة السياسية فى الخبرة الإسلامية - دراسة حالة الدولة العثمانية - رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد وعلوم السياسية ١٩٩٥م (٣٥٠/٢) .

ومما يجدر ذكره أن اليهود أنفسهم اعترفوا بفضل معاملة الأتراك وقد كتب الحاخام "إسحق" رسالة إلى اليهود في العالم يصف فيها وضع اليهود في الدولة العثمانية جاء فيها: "أعلن إليكم أن تركيا هي الأرض التي لا شيء يفتقد فيها، فالجميع طيبون معكم، والطريق للأرض المقدسة مفتوح لكم عبر تركيا، أليس من الأفضل لكم أن تعيشوا تحت حكم المسلمين أكثر من حكم المسيحيين ، هنا يسمح لكم بأن تلبسوا أروابكم وملابسكم اليهودية^(١)."

وبمناسبة الذكرى المئوية الرابعة لنزوح اليهود إلى الدولة العثمانية من أسبانيا نشرت صحيفة يهودية عام ١٨٩٢م رسالة جاء فيها "عندما وصل هؤلاء الذين كان كل شيء بالأمس يلعنهم إلى إستانبول بانسين عراة سمعوا لأول مرة صوتاً يقول لهم: أهلاً بكم أهل الكتاب"^(٢).

هذا وقد جدد اليهود امتنانهم للأتراك بفتح أبوابها لهم أثناء الاحتفال الذي أقاموه في يوليو ١٩٩٢م بمناسبة مرور ٥٠٠ عام لنزوح اليهود من أسبانيا ولجوئهم إلى الدولة العثمانية حيث حضر الاحتفال حاييم هيرتسوج رئيس الكيان الصهيوني، ففي أثناء لقائه مع أوزال وديميريل عرض شريط فيديو لجورج بوش أشار فيه بوش إلى أن

(١) أحمد نوري التعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٠/٢٢

Guleryuz, Naim, The History of the Turkish Jews", p.٣٠

(٢) أحمد نوري التعيمي: اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٣٧/٢٣ .

معايشة اليهود في تركيا منذ ٥٠٠ عام إنما هو مثال لإمكانية تعايش اليهود مع المسلمين في سلام وأمان^(١).

أما السلطان سليمان القانوني فقد كان متزوجاً من يهودية تدعى روكسيلانة، وكان لها نفوذ كبير في القصر السلطاني، وعند فتح السلطان سليمان لجزر رودس أعطى اليهود امتياز حق صناعة معدن كبريت إنجرتل فأعطاهم إمكانية الثراء، كما قام بفك أسر اليهود من بودين وبودابست إلى الدولة وأسكنهم سلانيك كما أعاد بناء أسوار مدينة القدس وسمح لليهود باستيطان بعض أجزاء من فلسطين^(٢).

وبعد استيلائه على المجر جلب معظم الذين كانوا يقيمون فيها إلى بلاده ومنحهم حق الحماية.

وقد وصف اليهود معاملة السلطان سليمان لهم بقولهم: "لقد جاء المسيح المنقذ، وجلب لنا السعادة"، وصرحوا أن الطريق إلى تركيا هو طريق الحياة بالنسبة لهم^(٣).

أما السلطان سليم الثاني فقد منح اليهود ألقاباً عالية في بلاطه، وبرزت في عهده شخصيات يهودية كان لها نفوذها وتأثيرها الكبير في الدولة من هؤلاء "إبراهيم كاسترو" الذي عينه السلطان وزيراً للمالية و"يوسف ناسي" وكان من كبار العاملين في الأمور المالية والمصرفية، وكان يمتلك شركات تجارية كبرى، وقد منحه السلطان سليم الثاني لقب دوناكسون صاحب البحر الأبيض، وزعيم اليهود وكان من كبار

(١) وزارة الخارجية العراقية ن العدد ٤٥٠ في ١٨/٧/١٩٩٢م.

(٢) Abdurrahman Kucuk, Donmeler Tarihi, Ankara, s. ١٠٢ .

(٣) أحمد نوري النعيمي ، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٣٤ .

المشجعين لهجرة اليهود لفلسطين، هذا وقد منح السلطان سليم أيضاً اليهود فى عهده حق زيارة الأماكن المقدسة.

أما السلطان عبد الحميد الثانى فكان يتخذ تقليداً فى عيد الفصح، حيث كان يقوم بتوزيع الأموال على فقراء اليهود، كما أنعم على حاخام الطائفة الإسرائيلية بمصر بأن منحه الوسام الحميدى، وكان يحرص على مشاركة اليهود فى الانتخابات البلدية، وقد شهد المستشرق الهنغارى "أرمينيوس فامبرى" على حسن معاملة السلطان عبد الحميد الثانى لليهود ومساواته لحاخام تركيا الأكبر، إلا أن السلطان عبد الحميد كان يفرق بين اليهود رعايا الدولة وبين الحركة الصهيونية وأطماعها فى الاستيلاء على فلسطين حيث تصدى للأطماع الصهيونية فى فلسطين حفاظاً على الأماكن المقدسة الأمر الذى أدى به إلى فقدان عرشه^(١).

وقد قام السلاطين العثمانيين بتطبيق مبدأ تعدد الزوجات الذى جاء به الإسلام والتزموا بالعدد الذى ورد فى القرآن الكريم وهو ألا يحتفظ الزوج بأكثر من أربع زوجات، وقاموا بتحقيق مبادئ الإسلام فى عدم جواز أن يرغب الزوج المسلم زوجته الكتابية على دخول دينه، كما لا يجيز الإسلام أن يمنعها من أداء عبادتها وشعائرها الدينية، بل إن بعض المذاهب الإسلامية الفقهية أوجبت على المسلم أن يصحبها إلى مكان أداء عبادتها سواء كانت كنيسة أم دور عبادة خاصة بها.

(١) هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، (١/٣٦٥ وما بعدها)، دار القلم، دمشق، ٢٠٠١م.

وقد سمح الأمير عثمان مؤسس الدولة إبان نشوء الدولة لابنه أورخان بالزواج من سيدة يونانية مسيحية كان يطلق عليها اسم نيلوفير بمعنى زهرة اللوتس قد أنجبت له ابناً تولى العرش من بعده وهو السلطان مراد الأول الذى تزوج هو الآخر من ابنة ملك بلغاريا. أما السلطان بايزيد الأول فقد أراد يتخذ من دولة الصرب دولة حليفة له فتزوج من أوليفيرا ابنة ملك الصرب. كما تزوج السلطان مراد الثانى ابنة أمير الصرب وتدعى مارا، وقد أثمر هذا الزواج ثماراً طيبة فى مجال علاقات الدولة بالخارج وكانت سبباً فى توثيق الصلات بين الدولة العثمانية ودولة الصرب. أما السلطان سليم الثانى فقد تزوج من يهودية أيضاً وتدعى نوربانو وهى التى أفسحت المجال لليهود للتغلغل داخل القصر السلطانى^(١).

وكان السلاطين السبعة الأوائل من عثمان حتى السلطان محمد الفاتح متزوجين من نساء حرائر بعقود زواج شرعية، وبعد السلطان الفاتح اتجه السلاطين إلى جوارى القصر، وكان كل سلطان يرفع الجوارى إلى منزلة عالية بعد عتقها فى حالة إنجابها ولد له فتصبح من مجرد جارية ملك يمين السلطان إلى سيدة يطلق عليها "قادين"، وكانت تظفر بالامتيازات التى تميزت بها السلطانة من حيث الاحترام وتخصيص جناح خاص لها وترصد لها اعتمادات مالية ويرتب لها حرس خاص بها، فحظيت بالمعاملة الكريمة تطبيقاً لأحكام الإسلام فى

(١) A.R. Kucuk, a. g. e. s. ١٠٧.

معاملة الرقيق تحقيقاً لقول الرسول صلوات الله عليه "أبما رجل ولدت منه أمته فهي معتقة عن دبر منه" (١).

هذا وقد نجم عن تعدد الزوجات في القصر السلطاني مشكلات انعكست على الدولة، إذ كانت كل أم لمولود ذكر تسعى إلى أن يكون ابنها ولياً، للعهد فحيكت المؤامرات بينهم، وشاع جو من التنافس والتناحر بين الأخوة غير الأشقاء مما أحدث خللاً في نظام الدولة (٢).

المدارس اليهودية في الدولة العثمانية :

انتشرت المدارس اليهودية في الدولة العثمانية انتشاراً كبيراً تطبيقاً لمبدأ الحرية المذهبية الذي منحتة الدولة في التعامل مع الطوائف غير المسلمة المقيمة بالدولة، حيث منحتهم حرية إقامة مدارس خاصة، وسمحت لهم بحرية تدريس ما يرونه من مناهج دون تدخل أو رقابة من الدولة.

لذا انتشرت المدارس اليهودية التي كانت تمول عن طريق كبار الشخصيات اليهودية الثرية في أوروبا أمثال عائلات روتشيلد وهيرش، وكانت مدارسهم تنقسم إلى قسمين: مدارس دينية محافظة تقوم بمهمة تعليم الدين اليهودي تعرف باسم "تلمود تورا"، ومدارس حديثة تكونت بعد حركة التنظيمات في الدولة وكانت تهتم بالتقافة الأجنبية ونقلها إلى الغرب.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣٤٦/١٠) وبنحوه الدارقطني في سننه (١٣١/٤) والإمام أحمد في مسنده (٣١٧/١).

(٢) انظر عبد العزيز الشناوي مرجع سابق، ص ٥٥٩ - ٥٩٧ (بتصرف).

وقد انتشرت هذه المدارس انتشاراً كبيراً في الشام وبغداد بالإضافة إلى أدرنة وسلانيك وإزمير وخاص كوى وغالاطة والروملى وغيرها.

وفى بداية القرن التاسع عشر تأسست مدرسة يهودية حديثة أسسها إبراهيم دكماندو عام ١٨٦٤م أحدثت صراعاً بين الحاخاميين المحافظين والعلمانيين، واستمر تأسيس المدارس اليهودية على يد الإليانس^(١). حتى وصل عددها فى بروسة وجناق قلعة وإيدن من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ مدرسة يهودية للبنين والبنات.

الدولة والمؤسسات الأجنبية :

وكان للمؤسسات التعليمية الأمريكية دور بارز فى الدولة العثمانية منذ عهد التنظيمات، وكان هدف تلك المؤسسات إيقاظ الحركة الانفصالية للشعوب التى تقع تحت حكم الدولة مثل الأرمن والبلغار، وكانت لتلك الامتيازات الذى كفلته الدولة لرعاياها فيما عدا السلطان عبد الحميد الذى قام بمراقبة دور هذه المدارس الأمريكية وأهدافها والتى تخرج منها الكثير من رجال الدولة الأتراك والقادة وأصحاب النفوذ أمثال بولند أجاويد رئيس وزراء تركيا السابق وتانسو تشيلر

(١) الإليانس : هيئة تكونت من اليهود الفرنسيين بهدف مساعدة اليهود والدفاع عنهم عن طريق المؤسسات التعليمية اليهودية الموجودة فى كل مكان، وانصبت جهودها على تأسيس المدارس بمساعدة ودعم أغنياء اليهود، وضمت إليها لجنة إقليمية لمساعدة ضحايا المجاعات من اليهود فى أوروبا ومساعدة ضحايا الحرب العلمية الأولى منهم ومساعدة المستوطنين اليهود فى كل مكان ، وكان لها نشاط تعليمى واسع، وقامت بنشر فكر حركة التنوير الأوروبية فى أوساط يهود الشرق (هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية ، ٢/ ٧٦-٨٢)، مرجع سابق.

رئيسة الوزراء السابقة أيضاً وعدد كبير من مشاهير الكتاب وأصحاب المناصب الكبرى^(١).

وانتشر في الدولة أيضاً عدد كبير من المدارس الإيطالية التي كانت تحتوى على بيوت للطلاب وملاجئ للأطفال اليتامى، وأقسام منها لتعليم الخياطة والتطريز وإدارة المنزل، وكان يدرس بها أعداد كبيرة من الذكور والإناث، وكان الرهبان هم القائمين على تأسيس هذه المدارس وكانت اللغة الفرنسية والألمانية من اللغات الأساسية فيها إلى جانب الإيطالية.

كما انتشر عدد كبير من المدارس في المدارس الفرنسية، وكانت تحمل سمات دينية خاصة لتعليم الدين لصغار السن، ومن أهم هذه المدارس - مدرسة سان جورج الفرنسية، ومدرسة سان بير الفرنسية ومدرسة نوتردام دي سيون ومدرسة سان بوليكار الفرنسية، وكانت تحمل سمات دينية في شئون تعليمها، كذلك معهد سان جوزيف الخاص الفرنسي وكان لهذا المعهد أهمية في المجال التجارى الذى سار على نهج المعهد العثمانى التابع لوزارة التجارة العثمانية فى ذلك الوقت، وكان الطلاب المسلمون يلتحقون بهذا المعهد إلى جانب الطلاب الأجانب مما يظهر استبعاد عنصر العصبية المذهبية منه^(٢).

هذا وقد كشفت التقارير الخاصة بنظارة المعارف أنه يوجد بالدولة ٤٥٤٧ مدرسة منها ٤١٣ مدرسة أجنبية، أما المدارس غير المرخصة فبلغ عددها ٤٠٤٩ مدرسة.

(١) هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية، مرجع سابق، ج٢، ص ٨٣-٩٢ .

(٢) أكمل الدين إحسان: مرجع سابق، م٢، (٥٩٥/٢-٥٩٧) .

وكانت مدارس الطوائف الأرثوذكسية تحت حماية الروس
ومدارس الفرنسيين والألمان تحت حماية الأرمن والكاثوليك.
أما الإنجليز والأمريكيون فكانوا تحت حماية الأرمن
البروتستانت، ولم يُسمح بتدريس اللغة التركية في مدارسهم، وفي عام
١٩١١م كان لدى الأجانب بالدولة عشر مدارس عالية و٤٦ مدرسة
إعدادية و١٤٥٠ مدرسة ابتدائية يدرس فيها ٦١٦٧٨ طالب، وكان
للروم اليونانيين ٣٥٠٠ مدرسة وللأرمن ٢٥٠٠ مدرسة وجميع هذه
المدارس لم يتحقق فيها أى نوع من الرقابة^(١).
وظل هذا الأمر حتى قيام حرب الاستقلال التي تم بعدها ربط
كافة المدارس بنظارة المعارف طبقاً لقانون توحيد التدريس الذي صدر
في ٣١ مارس ١٩٢٤م.

آثر تسامح الدولة مع اليهود

أدى تسامح الدولة المفرط مع الطوائف غير المسلمة وخاصة
اليهودية أن استغلها اليهود بشكل أضر بالدولة، وجعلهم يشكلون دولة
داخل دولة محققين دعامتين أساسيتين ارتكزتا على الهيمنة الاقتصادية
من خلال تشجيع الدولة للعائلات الثرية اليهودية بتأسيس البنوك الخاصة
والحكومية وعلى رأسها عائلات الاتيني ومزراحي وروتشيلد، ومن أهم
الشخصيات اليهودية التي ظهرت في الميدان التجارى والتي كان لها
تأثير كبير على الدولة شخصية "يوسف ناسى" الذي شغل منصب
مستشار السلطان سليمان القانونى ومنح امتيازاً على مدينة طبرية مع

(١) المرجع السابق، ص ٥٩٧ .

سبع قرى مجاوره استثمره لصالح اليهود فى هجرتهم إلى فلسطين، وتلا
السلطان سليمان السلطان سليم الثاني الذي منحه لقب دوق دوناكسون
"صاحب البحر الأبيض" كما منحت الدولة أيضاً منصب وزير المالية
لجاويد بك الذي قام بعقد الصفقات وإدارة الأموال اللازمة لهجرة
اليهود.

والدعامة الثانية التى ارتكز عليها اليهود فى الدولة هى السيطرة
على وسائل الإعلام، فقد قام رجال اليهود الأثرياء بتمويل الصحف
المناهضة للدولة لخدمة أغراض اليهود إلى جانب إنشاء وتأسيس
المدارس اليهودية التى قامت بتلقين الشباب الفكر القومى ودعوتهم لتقليد
الغرب بغرض التوجه إلى التحديث، أما الصحف فقد وجهوها إلى
الدعوة إلى سفور المرأة حتى تواكب الحضارة الغربية الحديثة، وإلى
تأليب رأى العام التركى ضد الخلفاء والتوجه إلى علمنة الدولة والبعد
عن المظاهر الإسلامية وإلى تشجيع الإلحاد، وقد وصلت الدولة فى منح
المناصب الوزارية والمراكز الكبرى لهم إلى أن أصبحوا يستخدمون
سلطاتهم فى زعزعة الأمن الداخلى للدولة وإشعال الفتن الطائفية وإثارة
القلق ومثال هذا ما قامت به فئة يهود الدونمة^(١).

ومن جانب آخر أفسحت الدولة العثمانية المجال للجمعيات
الماسونية التى انتسبت إليها شخصيات تركية ظناً منهم أنها تسعى
لخدمة العالم من خلال مبدئها العام (الحرية - المساواة - الإخاء) إلا
أنها تكشفت أهدافها الصهيونية بسبب جذورها التوراتية التلمودية والفكر
القبالى الذى يستند على أفكار فلسفية وتعاليم روحية تعتبر اليهود

(١) موفق بنى المرجة: مرجع سابق، ص ١٨٤ (بتصرف) .

والماسونيين هما الأبناء الروحانيين لبناء هيكل سليمان^(١). وهذه المنظمات الماسونية هي التي ساهمت مساهمة فعالة في الإطاحة بالسلطان عبد الحميد تحت ستار الحماية الدبلوماسية لها.

من ناحية أخرى كان ليهود الدونمة دور خطير في القضاء على الدولة العثمانية فقد كان لهم دور كبير في التحكم في اقتصاد الدولة وتغلغلوا داخل مؤسسات الدولة فكانت لهم سيطرتهم المباشرة على توجيه الإعلام والتحكم في الصحف ووسائل الإعلام المختلفة التي كانوا يمتلكونها بما يخدم أغراضهم، ومن ثم قاموا بدور كبير في التأثير على الفكر التركي المسلم وتوجيهه إلى الأفكار الملحدة والدعوة إلى تقليد الغرب وتشجيع العلمانية والدعوة إلى سفور المرأة واختلاط الشباب بالفتيات بدعوى تحديث الدولة إلى جانب نجاحهم في القضاء على الخلافة الإسلامية التي كانت ممثلة في الدولة العثمانية.

وكان من نتائج تسامح الدولة العثمانية وتطبيقها الأحكام الإسلامية أن أصبحت نافذة للتدخل الأجنبي المباشر الذي قام بدوره بإشعال نيران الفتن والخلافات بين الطوائف غير المسلمة بهدف الحصول على النفوذ والمكاسب في الدولة، إلى جانب تنشيط الحركات الانفصالية القومية في الأجزاء الأوروبية من الدولة مثل رومانيا وبلغاريا وصربيا وألبانيا واليونان، والعمل على تغيير أوضاع المسيحيين واليهود عن طريق الحصول على جنسيات أوروبية فيصبح

(١) جواد رفعت ألتخان: أسرار الماسونية، ترجمة نور الدين رضا، المختار الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ١٠-١٩.

لهم حق الامتيازات الأجنبية، بالإضافة إلى افتتاح العديد من المدارس والمعاهد الأجنبية لنشر أفكار الغرب في الدولة، وإذكاء الخلافات وتعميق النزعات العنصرية والمذهبية والطائفية للتدخل في شئون الدولة الداخلية - وتمثلت تلك العنصريات في الإمارات العلوية والتركمانية والكردية والدروز والعمل على إقامة دولة مارونية، هذا إلى جانب قيام اليهود بتغذية وإثارة المشاكل العنصرية والإقليمية وخاصة تبنيها لمشكلة الأقليات، وقد تجلى هذا الموقف في تصريح ناحوم جولدمان رئيس الرابطة اليهودية العالمية في خطابه الذي ألقاه في باريس في مؤتمر اليهود المتقنين عام ١٩٦٨ الذي جاء فيه:

"إذا أردنا لإسرائيل البقاء والاستقرار في الشرق الأوسط فعلينا أن نفسخ الشعوب المحيطة بها إلى أقليات متنافرة تلعب إسرائيل من خلالها دوراً طليعياً وذلك بتشجيع قيام دولة علوية في سوريا، ودولة مارونية في لبنان، ودولة كردية في شمال العراق^(١).

من ناحية أخرى كان للدور النسائي الأجنبي أثر كبير في انهيار الدولة والتدخل في الشئون الداخلية أمثال روكسلانة اليهودية الروسية زوجة السلطان سليمان القانوني التي حققت نجاحاً في تقارب السلطان سليمان لملك فرنسا فرانسوا الأول الذي منحه السلطان لقب "حامى النصارى العثمانيين" وعن طريقه تحقق نظام الامتيازات الأجنبية وهي

(١) انظر جريدة الأنباء الكويتية، مارس ، ١٩٨٤م.

التي دبرت مقتل الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) إبراهيم باشا. واستعطف السلطان سليمان لقبول إيواء يهود الأندلس. والسماح لهم بالاستقرار في الدولة.

أما اليهود فكان انهيار الخلافة الإسلامية التي كانت تتمثل في الدولة العثمانية على يد طائفة "يهود الدونمة" الذين تخفوا وراء الإسلام واتخذوا هويتين متناقضتين: اليهودية المتأصلة والإسلامية المزيفة؛ فجسدوا دور المنافقين المراعين وهم الذين بذروا بداية الفكر الصهيوني في العالم.

إلى جانب امتلاكهم الأجهزة الإعلامية التي عملت على تأليب الرأي العام ضد الدولة لخدمة أغراضها ومواجهة كل من يعترض عليهم.

وظهور فكرة القومية وانحياز العرب القوميين إلى إنجلترا وفرنسا ضد الدولة. والعمل على محو الإسلام وتشجيع الكتب والصحف الملحدة والدعوة إلى التغريب.

وإضافة إلى هذا كله كان الغزو الروسي وأثره على السياسة العثمانية باعتبار روسيا حامية للمسيحيين في الدولة حيث استطاعت اقتطاع تركستان ١٨٨٤م والسيطرة على القوقاز^(١).

(١) ضابط تركي: الرجل الصنم.. كمال أتاتورك، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، بيروت ١٩٧٨م، ص ٣٨٦، ٤٩٤.

ومع هذا فلم يسجل تاريخ الدولة العثمانية على اختلاف عهودها
حادثة اضطهاد ديني واحدة بل طبقت منهج الشريعة الإسلامية في
التعامل مع أهل الذمة فحفظت أعراضهم وأموالهم وأماكنهم وأديانهم
وأماكن عبادتهم ومقدساتهم.

خاتمة

يتضح من استعراض هذه الأوراق أن الدولة العثمانية وريثة دولة
الخلافة العثمانية، قد طبعت مبادئ الإسلام المتمثلة في التسامح مع
غير المسلمين ومنحهم كافة الحقوق والامتيازات التي يقرها لهم وفقا
لقاعدة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا)، لذلك لم يُضطهد أحد ولم يُحرم من
أي حق من حقوقه ولكن الدولة أسرفت غي منح الحقوق، حتى أصبح
نظام (الامتيازات الأجنبية) أحد الأنظمة التي أسهمت في انهيار دولة
الخلافة حيث عظم نفوذ الأجانب وخاصة اليهود الذين أخذوا يسيطرون
على مختلف الأمور في دولة الخلافة، ويدبرون الخطط لكي يسقطوا
دولة الخلافة، وتم لهم ذلك في النهاية.

المصادر والمراجع

- ١- أحمد عثمان: تاريخ اليهود، مكتبة الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م.
- ٢- أحمد نوري النعيمي: أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، رئاسة جامعة بغداد، مركز الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٢م.
- ٣- أكمل الدين إحسان: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إستانبول، ١٩٩٩م.
- ٤- ثريا شاهين: دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ترجمة محمد حرب، جدة، ١٩٩٧م.
- ٥- جواد رفعت أتلخان: أسرار الماسونية، ترجمة نور الدين رضا، المختار الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٥م.
- ٦- رفيق شاكرا: السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٠م.
- ٧- ضابط تركي: الرجل الصنم.. كمال أتاتورك، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، بيروت، ١٩٧٨م.
- ٨- عابدة العلي: دولة المثلث بين فكي الكماشة، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٧م.
- ٩- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٢٩٧هـ .
- ١٠- عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٢م.
- ١١- على حسون: الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م.

- ١٢- كمال السعيد حبيب: الأقليات والممارسة السياسية في الخبرة الإسلامية، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٩٥م، ج٢.
- ١٣- محمد جميل بيهم: العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، المطبعة الوطنية، بيروت، ١٩٥٧م.
- ١٤- موفق بنى المرجه: صحوة الرجل المريض، مؤسسة صقر الخليج، الكويت، ١٩٨٤م.
- ١٥- هدى درويش: الإسلاميون وتركيا العلمانية، دار الآفاق العربية، ١٩٩٨م.
- ١٦- هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية، دار القلم، دمشق، ٢٠٠١م.
- ١٧- يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، مؤسسة فيصل إستانبول، تركيا، ١٩٩٠م.
- ١٨- يلماز أوزتونا، الدولة العثمانية، نقلاً عن آراء: الراهب الأرمني سيحون. ويلامونت. Les Voyages, Du Loir, Corneille le Bruyn, Comte de Bonneval.

الدوريات :

- ١٩- جريدة الأنباء الكويتية ، مارس ، ١٩٨٤م.

المراجع التركية :

- ٢٠- Abdurrahman Kucuk, Donmeler Tarihi, Ankara, ١٩٩٢.

نموذج لتسامح المسلمين مع الآخر

المسلمون يدافعون عن اليهود ضد الاضطهاد الأوروبي

أ.د/ أحمد عامر (*)

تمهيد :

يعد التسامح وحب الآخر ركناً مهماً وأساسياً فى العقيدة الإسلامية فقد وصف الله عباده المسلمين فى القرآن الكريم بأنهم يحبوا مخالفهم فى الدين فقال تعالى : ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]، فالقرآن ينطق بأفصح عبارة وأصرحها واصفاً المسلمين بهذا الوصف الذى هو من أثر الإسلام وهو أنهم يحبون أشد الناس عداوة لهم وهذا دليل على أن هذا الدين دين حب ورحمة وتسامح و﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة: ٨٢]، إنهم لا يحبونكم مع أنكم تؤمنون بكتابهم ومع ذلك تحبونهم ولا يحبونكم وبهذا نحتج على من يزعم أن الإسلام يغرى المسلمين ببغض المخالف لهم فى الدين .. كما أمر الله المسلمين أن يجادلوا أهل الكتاب بالنى هى أحسن فقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

إن علاقة المسلم بالآخر، هذه العلاقة يجب أن تكون علاقة تعاون وتساند - تأثير متبادل - وليس علاقة تعاند وتصادم.

(*) نائب رئيس جامعة قناة السويس (سابقاً).

إن معاداة السامية - منذ هرتزل، هي أفضل مساعي للصهيونية ولقد أعلن رئيس التنظيم اليهودي العالمي، في ٢٣ يوليو عام ١٩٥٨م لدى افتتاح المؤتمر اليهودي العالمي بجنيف: "أن سقوط معاداة السامية المعلنة يمكن أن يشكل خطراً على البقاء اليهودي .. إن لليهود في كل مكان تقريباً حقوقاً متساوية مع المواطنين الآخرين، سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي .. ومع ذلك فإن لاختفاء معاداة السامية بالمعنى الكلاسيكي للكلمة - على الرغم من كونه نافعاً للوضع السياسي والمادي للمجتمعات اليهودية - آثاراً سلبية على الحياة الداخلية لحركتنا".

لم يكن "ألفرد درايفوس" يعنى الكثير للعرب والمسلمين، حيث ثارت قضيته في فرنسا، بين القرنين التاسع عشر والعشرين، دافع المسلمون عن الضابط اليهودي البريء المتهم بالتجسس للألمان .. فرشيد رضا الذى تتلمذ على يد محمد عبده في مصر، تحدث سنة ١٨٩٨، سنة تأسيسه مجلته "المنار" عن أنباء شاعت في فرنسا حول "ما قاساه اليهود فيها من الإهانة والاضطهاد وسوء المعاملة". ولم يكن في وسع رضا، وهو رجل الدين أن يرد تلك البشاعات إلى الدين، إنما ردها إلى "التعصب الجنسي والحسد الذميمة أثارهما في صدر الأمة فئة من أرباب الجرائد المعادين لليهود الطامعين بما فى أيديهم من خزائن الأموال".

بيد أن تلميذ محمد عبده لم يكتف بهذا ، بل نراه يؤكد على تعصب أوروبا حيث "اضطهاد اليهود والهياج عليهم فى فرنسا المتمدنة بسبب مسألة درايفوس الذى اتضح براءته" .. دافع رشيد رضا عن

درايفوس أقل بكثير مما اعتنى بالمقارنة بين عالم المسلمين وعالم المسيحيين. فلو أن "تلك الحوادث القبيحة جرى مثلها بين الشرقيين"، لطبق السماء صراخ تلك الجرائد وسلقت الشرقيين وآدابهم بالسنة حداد وأقلام أنفذ من سهام؛ بل لو كانت تلك الجرائد فى بلاد تكون فيها ضعيفة الجانب ضحف اليهود فى فرنسا، لكانت أسرع الناس طلباً للحرية المطلقة والعدالة العامة للبشر على اختلاف أجناسهم .. إن الحرية العمومية ليست مختصة بفريق دون فريق. فإن التمدن الصحيح والعدالة الحقيقية يفرضان المساواة المطلقة بين جميع بنى الإنسان فى المنافع العمومية .. فليس واضحاً تماماً أى الرغبتين كانت أقوى عند رضا و" منارة " الدفاع عن اليهود أم الطعن بالحضارة الغربية.

سمح لرشيد رضا بأن يدافع عن درايفوس من دون أن يبدو شاذاً أو متجرئاً على المؤلفات، مال بعضاً لصحافة الصادرة بالتركية والعربية معاً إلى الضابط المتهم زوراً فى فرنسا، فيما "انتهزت المناسبة لتسجيل بعض النقاط ضد الحضارة الليبرالية الزائفة فى أوروبا" .. ففى الأراضى العثمانية ، أوقفت السلطات توزيع بعض ما نُشر فى سنة ١٨٦٩، وكانت بين وقت وآخر تغلق صحفاً تحرض على اليهود بوصف التحريض هذا تهديداً للأمن العام". فما يعرف بالعنصرية لم يجد فى النص الإسلامى، وحضارة الإسلام دائرة حول نص ما يغذيه. لقد خلا القرآن والصحيح الثابت من حديث الرسول مما يمكن أن يعد عنصرياً.

إن ما كتبه رشيد رضا ومسلمون آخرون سبقوه يستشف منه أن ثقافتهم غايرت أوروبا المسيحية فى النظر إلى الآخرين. فهى منذ عهد

عهيد، نظرت إلى اليهود والمسيحيين بوصفهم جزءاً منها، جزءاً قد لا يطابقها في هذا الأمر أو ذاك، وقد يقسو عليه أهلها أو يرتابون به، وهم ميالون إلى تبويبه بمقتضى هرمية .. غير أن أهم ما في جمال الدين الأفغانى أنه دفع محاربة الاستبداد إلى مصاف متقدمة، ما يساعد من حيث المبدأ على الشروع في تأسيس قيم منفتحة ومتسامحة تجمع بين المستبد بهم، بغض النظر عن أديانهم وأعرافهم .. والوجهة هذه التى ترافقت مع سياسات مدحت باشا، الإصلاحى الماسونى الذى أطاح بعبد العزيز فى سنة ١٨٧٦، كانت محكومة سلفاً بحدودها وطابعها المفارق، فـ "صدمة أوروبا" التى لولاها ما ارتفعت مسألة الاستبداد لتبلغ الرتبة التى بلغت، كانت هى نفسها توأم التقدم الأوروبى، بالقوة، نحو الشرق.. مع هذا التقى فى بعض أفكاره مع النزعة التحررية لـ"تركيا الفتاة" التى خاصمها الشيوخ الذين خاصموه. فهو - ومن موقع دينى خاص به - ناهض ما يمكن اعتباره التنظيم الأصولى الأول الذى أنشأه عبد الحميد. إن رشيد رضا حين دافع عن درايقوس، ما كان ماثلاً فى ذهنه تعاليم أستاذه اللذين ارتبط باسمهما "الإصلاح الإسلامى" : جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، فقد كانت كراهية الغرب حاضرة على الدوام فى "نوعى هذا، إلا أن حب الغرب كان هناك أيضاً فورثه طه حسين ومحمد حسين هيكل ورفاقهما وطوروه على طريقتهم. والحق أن "الإصلاح" إنما تشكل من هذين الحب والكراهية معاً، فغداً يستحيل من دونهما النظر إلى الصلة الإسلامية بالآخر عند نهاية القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين.

فالأفغانى كان السيد الذى وجد من يتهمه بالجاسوسية، ومن يشك بالحاده، والمسلم الذى عُرف بصلته الوثيقة بالمسرحى المصرى

اليهودى يعقوب صنّوع، كذلك كان الوجه الكوزموبوليتى المبكر الذى صار حكاماً كثيرين وعاش فى أمكنة عدة .. حتى إن الخديوي توفيق حين نفى جمال الدين، نفاه بوصفه "رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا". وكان شاه إيران، ناصر الدين، نفاه فى سنة ١٨٩١م، فيما ظهر من يربط جمال الدين بمقتل الشاه بعد سنوات خمس.

من التكهّنات والرغبات التى راحت تُلمصق إصافاً بالتاريخ منذ اتساع الفجوة العربية - التركية، وبالأخص منذ سنة ١٩١٣. ولئن شارك فى تضخيم الوهم كون بعض الضباط الذين أطاحوا بعبد الحميد ماسوناً، شكل وعاظ ورجال دين عرب، يبثون دعوته بلغة القرآن بين الرعايا والناطقين بالضاد.

وفى ما لم يتلأخ خصومه الرجعيون فى استخدام شيعيته ضده فى البلاط العثمانى، اهتم جمال الدين بـ"إزالة" السنّى - الشيعى، ومن ثم الفارسى - الأفغانى والفارسى - التركى، عملاً بنظريته فى الوحدة والجامعة الإسلاميتين القابلة لتعدد التأويل، على أن رابطة الدين لم تتعارض، فى عرفه مع رابطة القومية فأذاع نداءً إلى مسلمى مصر والهند يقضى بحسن معاملة غيرهم من أبناء أمهم، وحين أنشأ "العروة الوثقى" وجههاً إلى "الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً"، وطلب المساواة فى المراعاة بين المسلمين وغير المسلمين شرط أن لا يصدر عن أحد من الأخيرين "ما يضر بشوكة الإسلام"، وفى هذا المعنى السياسى والحديث لم يتردد مستشرق متعاطف، كمكسيم رودنسون، فى المماثلة بينه وبين ثيدور هرتزل لحظة تصديه لإنشاء دولة يهودية، ففى

الفترة إياها كان أبو القومية الإسلامية، جمال الدين الأفغانى ، يصرف عمره مثل هرتزل، ليرى أى الدول يمكن أن تدعم مشاريعه، محاولاً أن يلعب الواحدة منها ضد الأخرى.

لم يعد المسلمون المرايا الوحيدة لذواتهم وصورتهم فى هذا العالم، فالأفغانى بدأ مهجوساً بسلطة غير مستبدة هجاسه بأوروبا وما يعنيه لها الإسلام والحكم الذى يمكن أن تصدره عليه. وبسلبه وإيجابه كان لهذا التعويل على الآخر المتفوق، أن منح الأفغانية جدتها النسبية قياساً بالسائد .. فالإسلام إذ ينظر إليه سياسياً، وبالأحرى نضالياً وضدياً كحصن لـ "الهوية" فى مواجهة "الآخر"، يجعل وطأة التاريخ عبء تركته يصادران التقدم الذى وعد به الإسلام المذكور.

الإغفال عن بعض المعلومات المدرسية الذائعة، فأبسط إمام بالولايات المتحدة وتاريخها الحديث يعلمنا أن اليهود تعرضوا لأكثر من مد معاد للسامية كان آخرها مطالع الخمسينات، والمد هذا إنما كانت مناسبتة الكشف عن قيام الشيوعي اليهودي جوليبوس بوزنبرغ وزوجته إيثيل، بتسليم بعض أسرار القنبلة الذرية إلى الاتحاد السوفيتي، هكذا أعدم الزوجان فى سنة ١٩٥١، عشية صعود المكارثية الظافر، وسط أجواء مهتاجة تستعيد الأوصاف "التأميرية" والشيوعية" لليهود.

ولم ينفصل هذا التطور، منا ناحيته، عن تحول عام فى المزاج الأميركي الذى بدأ يمنح العداوة لستالين، تحت وطأة الحرب الباردة، لا لهتلر الذى اندحر وانتحر، وإذا انطوى التحول هذا على محاولات لتهريب بعض النازيين واستخدامهم فى الحرب الباردة ضد الشيوعية،

فإن طغيان المشاعر الليبرالية واليسارية على البيئة اليهودية الأميركية لم يكن عنصراً مُريحاً.

وكانت المفارقات الدالة أن إعدام الزوجين روزنبرغ جرى في مؤازرة حملة الصحافة السوفييتية على "الكوزموبوليتية" اليهودية، وقبل عام على محاكمة "العميل الصهيوني" والأمين العام للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، رودولف سلانسكي وإعدامه، وقبل عامين على "مؤامرة الأطباء" اليهود الستالينية الشهيرة.

فاليهود ، في سنة ١٩٣٤، يملكون وسائل الدعاية من صحافة وإذاعة وسينما في الولايات المتحدة، و"لا يستطيع أن ينشر أكبر العلماء حقيقة تاريخية أو علمية إذا كانت مخالفة لمصالح اليهود"، وكذلك الحال في إنجلترا وفرنسا حيث لهم السيطرة على الصحف والأحزاب، أما في ألمانيا نفسها فقد عجز هوجوشتينز "الألماني الوطني" عن مقاومتهم بواسطة سبعين صحيفة كان يملكها في برلين وغيرها، ولولا الهتلريون كانت لهم صحف ألمانيا كلها إلا الكاثوليكية، أبعد من هذا أن يهود أميركا ويهود الهند يسعون لتغيير شكل الحكم والإدارة في الهند لأسباب اقتصادية تهمهم، مما يدل على أن للمركزيز ردينغ (نائب المالك اليهودي) ضلعاً في قضية الهند، أنه وعد مسلمي الهند بإعطائهم حقوقاً كثيرة في دستور الهند الجديد إذا هم عدلوا عن مساعدة عرب فلسطين.. وهو يكتشف في سنة ١٩٣٥، أن اليهود السوفييات "استولوا على مقاليد سياسة روسيا الخارجية"، لكن لليهود ، في سنة ١٩٣٨، يعقدون مؤتمراتهم في الصين وفي الولايات المتحدة لتدبير أمور الصين

ومقاومتها لليابانيين، وهم الذين يدبرون الأمور بين الصين وروسيا الشيوعية، علماً أن العام الذي تلا وشهد توقيع معاهدة التحالف الستاليني - الهتلري، حول معاداة السامية في الاتحاد السوفياتي إلى سياسة أمر واقع .. لكن الحرب العالمية الثانية، توضح استيلاء اليهود على زمام الأمور في واشنطن وتحريضهم على الحرب .. وهو لا يلبث أن يستطرد في سيناريو للخيال العلمي عن أدوار عدد من الوزراء اليهود في البلدان الغربية لدفع بلدانهم والعالم نحو الحرب. في أواخر سنة ١٩٤٧م بأن ملك رومانيا الشاب يريد أن يتزوج بامرأة بوربونية لا بمومس يهودية كما فعل أبوه، فإنه يستنكر - بعد عامين - دخول ثلاثة من الأغوار الدمشقيين كنيساً لليهود السوريين ورشقهم بقنابل أودت بـ ١٤ قتيلاً وجرحت ٢٠؛ بل يستنكر اهتمام الناس بهذا العمل كما لو أنه وقع على قرية عربية في فلسطين.

أما ألمانيا نفسها فقد عجز هوغاوشتينز "الألماني الوطني بواسطة سبعين صحيفة كان يملكها" رفضت دور النشر الفرنسية طبع كتاب جارودي "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" خوفاً من اللوبي الصهيوني .. قدم اللوبي الصهيوني جارودي للمحاكمة بسبب ما ذكره عن عدالة محكمة نومبرج، ودعوته للبحث العلمي في الرقم المقدس للهولوكست: ٦ ملايين يهودي .. ومع ذلك فطبقاً لقانون فاببوس - جيسو، تمت محاكمة جارودي، وغرمه القاضي ٢٠,٠٠٠ فرنك، استأنف جارودي الحكم، واعتدى صهاينة بيتار على الصحفيين والإعلاميين العرب والإيرانيين على عتبة المحكمة، وطاردهم حتى

محطة مترو الأنفاق وأصابوهم بما يستلزم علاجاً فى المستشفى .. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد تلقى جارودى عدة مكالمات هاتفية تهدده بالقتل، وتم الاعتداء على المكتبات التى تتبع كتبه فى فرنسا وسويسرا واليونان، حتى امتنعت عن ذلك .. أن هناك عشر دول أوروبية أصدرت قوانين شبيهة بالقانون الفرنسى، وأن هناك محاولات لتصعيد مثل هذا القانون للأمم المتحدة، الأمر الذى يعنى أن تشهر الأمم سيفها لحساب الصهاينة.

التسامح من خلال قراءة لقانون الحرب في الإسلام وفي القانون الدولي العام

أ.د. جعفر عبد السلام (*)

مقدمة :

لعله من أهم القضايا التي اهتم بها الإسلام اهتماماً بالغاً واحتلت مساحة كبيرة في دستور الأمة الإسلامية وهو القرآن الكريم قضية التسامح، وكان القرآن الكريم يبادر بالدفاع عن الدعوة الإسلامية وعن المد الإسلامي ووصلوه إلى كل ربوع الدنيا ، ويترقب ما يدعيه أعداء الإسلام زوراً وبهتاناً من أن الدين الإسلامي دين جبر وعناد وإكراه واضطهاد، ولذا فهو يركز على إثبات السماحة والتراحم والبر والصلة بين بنى البشر جميعاً قبل بزوغ هذه الفرية، وقبل إثارة هذه الشبهة، ومن أدل آيات القرآن الكريم على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [الصفات: ٣٤-٣٥]، وبهذا يرشد الإسلام أتباعه وأهله إلى التسامح العظيم والصفح الجميل ودفع السيئة بالحسنة، وذلك هو الطريق الكريم الذي يجلب الود الخالص، بل يحول العداوة الشديدة إلى حب شديد. ومما يؤكد على أن القرآن الكريم والشرع الإسلامي يريد أن تسرى هذه الروح الطيبة لا بين المسلمين فقط، بل بينهم وبين العالم أجمع على اختلاف الأشكال والألوان واللغات والديانات قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

(*) الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية.

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿[الحجرات: ١٣]﴾، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقوله عز وجل: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله عز وجل: ﴿ لَا يَنْجَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

ولم يكتف الإسلام في اهتمام القرآن بقضية التسامح إلى هذا الحد، بل جاءت السنة النبوية أيضاً تقاسم هذا الاهتمام ويعلن من خلالها رسول الله ﷺ احترامه للآخرين وتقديره لهم وتسامحه معهم والدفاع عنهم، حتى وإن كانوا على غير دينه ومن ذلك قوله ﷺ: "من ظلم معاهداً أو انتقص حقاً له أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه فأنا خصمه يوم القيامة"^(١). ومنه أيضاً قوله ﷺ: "من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة" وقوله ﷺ: "من آذى ذمياً فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله"^(٢). ومررت به ﷺ

(١) رواه أبو داود والبيهقي.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط.

جنازة فقام لها وقام معها أصحابه وقالوا يا رسول الله إنها جنازة يهودى فقال: "أو ليست نفساً، إذا رأيتم الجنازة فقوموا"^(١).

ويصل تسامح رسول الله ﷺ إلى أقصى حد فى تطبيقاته العلمية وذلك فى فتح مكة، عندما دخلها ظافراً منتصراً بعد أن خرج منها مذموماً مدحوراً، إذا به يفاجئ أعداءه بصورة من التسامح ليس لها مثيل عندما أحكم قبضته عليهم، وقال لهم: ما تظنون أنى فاعل بكم قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ألا وأن من عظمة الإسلام ألا يقف بالتسامح فقط عند حالة السلم والمهادنة؛ بل يجعل من حالة الحرب مجالاً خصب لتطبيق التسامح وذلك حتى يخفف من ويلاتها، ويقلل من آلامها وآثارها، وتمتلى كتب السير والتاريخ ومعها كتب الفقه الإسلامى بالنماذج الطيبة التى كان يعامل من خلالها رسول الله ﷺ أعداءه وأشد الناس عليه، كما تمتلى بالمبادئ والقواعد التى تفيض سماحة ورحمة فى معاملة ضحايا الحروب من الجرحى والمرضى والقتلى وغيرهم.

هذه القواعد وتلك المبادئ الإسلامية العظيمة التى شرعها الإسلام أثناء الحرب وبعدها، وإن اتفقت والقانون الدولى الإنسانى المعاصر فى كثير منها، إلا أنها لا زالت تسمو على هذه الأحكام الوضعية بكونها شريعة دينية سماوية تحظى بالجلال والكمال والطاعة والاحترام والتقدير، وذلك لكونها جزءاً لا يتجزأ من الدين الإسلامى، أما الأحكام الوضعى فإن الواقع ينطق بأن أهلها ينقضون أحكامها وواضعوها غير محايدى فى تطبيقها.

(١) رواه البخارى.

وتبرز سماحة الإسلام أثناء الحرب بروزاً شديداً، سواء على مستوى القواعد التي تحكم سلوك المحاربين أم على مستوى القواعد التي تحمي الضحايا والمصابين، وهاتان الناحيتان اللتان سنركز عليهما في البحث مقارنة بما عليه الأمر في القانون الدولي العام، وأسأل الله عز وجل التوفيق والسداد والهدى والرشاد.

المبحث الأول

التسامح من خلال القواعد التي تحكم سلوك المحاربين

نجد الاهتمام الحديث بتقنين القواعد التي تحكم سلوك المتحاربين والتي يرجع العديد منها إلى العرف الدولي - إلى منتصف القرن التاسع عشر حيث وضع ميثاق سان بترسبورج عام ١٨٦٨م، ولكن اتفاقيات لاهاي التي أبرمت عامي ١٨٩٩، ١٩٠٧م، هي التي وضعت قواعد مفصلة بهذا الخصوص إلى الحد الذي جعل الدول تسمى هذه القواعد باسم قانون لاهاي، وقد نظم سلوك المحاربين في الحروب البرية والبحرية ووضع بعض القواعد الخاصة بالحرب الجوية. ونستطيع أن نستخلص بعض المبادئ العامة من هذه الاتفاقيات ينبغي أن تحكم سلوك المحاربين وهي:

أولاً : مبدأ الإنسانية :

يَسَلِّمُ الفقه القانوني كله ، بل والفكر الإنساني المعاصر بأن الحرب ظاهرة سيئة، لذا تحكمها قاعدة أساسية هي أن الدول في العلاقات السلمية يجب أن تفعل أفضل الممكن، أما في العلاقات الحربية فيجب أن تفعل أقل سوء ممكن^(١). وهكذا فمن شأن مبدأ الإنسانية أن تقصر الحرب في العلاقات بين الدول بحيث لا يصير الأفراد أعداء إلا بشكل عارض، وبوصفهم جنوداً فحسب على ما أوضح جان جاك روسو.

(١) "Que les nations doivent se faire dans la paix, la plus de bien possible et dans la guerre le moins de mal possible".

ومن ناحية أخرى فمن شأن مبدأ الإنسانية حماية الأفراد المدنيين أو الذين لا يملكون وسائل للدفاع عن أنفسهم وتجنبيهم ويلات الحرب وكذلك فإن المحارب ليس مطلق الحرية في أن يستخدم ما يشاء من الأسلحة؛ بل عليه أن يقصر استخدامه على ما لا يحقق أذى كبيراً بالأفراد مراعاة لإنسانيتهم، كما يجب أن يتخلى عن القتال إذا ما كفت مقاومة العدو.

١- التمييز بين المحاربين وغير المحاربين :

أسهمت النظرية التقليدية في إرساء هذا التمييز حيث كان القانون الدولي قبل القرن الثامن عشر يعد العلاقة الحربية علاقة عداً بين جميع مواطني الدولة، المقاتلين والمدنيين على السواء، وعلى ذلك كان يكثر قتل ما كانت تقوم الجيوش المسلحة باعتبارهم أعداء أيضاً دون قيد أو شرط؛ بل وكثيراً ما كانت تقوم الجيوش بذبح سكان الإقليم الذي تغزوه رجالاً ونساءً وأطفالاً، عجزة وأقوياء، وظل الأمر كذلك حتى بدت بعض العوامل التي أثرت في الحرب وخففت من همجيتها ودعت إلى قصر ما يوجه من أعمال القتال على القوات المتحاربة دون الشعب الآمن، وأوجبت عدم التعرض لأشخاصه وأملكه بسوء إلا بداعي الضرورة أو في حالات خاصة وعلى أثر هذه العوامل ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر فكرة أن الحرب ليست علاقة عداً بين المواطنين، وإنما هي علاقة بين الدول فقط، وقد وضعت هذه الفكرة في القانون الدولي التقليدي الأساسى القانونى لمبدأ التمييز بين المقاتلين

وغير المقاتلين^(١). وتبناها بعد جان جاك روسو الفقهاء يورتاليس وتاليران، وأساس هذا التمييز هو ضرورة حماية المدنيين من أهوال الحرب، وإن كان هذا التمييز قد انتقد لأنه - رغم كفالاته حماية من لا يقاتلون - إلا أنه يطلب منهم في نفس الوقت أن يمثلوا دور الشهود الخرس أمام ملهاة الحرب، إذ يشترط عدم مساهمتهم فيها بأي شكل حتى يمكن أن يستفيدوا بهذه الحماية.

ومع ذلك فقد حاولت اتفاقيات جنيف (١٩٤٩) وملحقها (١٩٧٧) أن يدعموا هذا التقسيم ويفرضوا على المحاربين احترامه. فقد أورد البروتوكول الملحق باتفاقية جنيف العديد من الأحكام بهذا الصدد فنص على أنه "يتمتع السكان المدنيون والأشخاص المدنيون بحماية عامة ضد الأخطار الناجمة عن العمليات العسكرية .." ولتحقيق فاعلية هذا المبدأ قرر الملحق الأحكام الآتية :

- ١- حظر الهجوم على المدنيين أو توجيه أعمال العنف الرامية إلى بث الذعر بينهم أو التهديد بذلك.
- ٢- حظر الهجمات العشوائية، وهي تلك التي لا توجه إلى هدف عسكري محدد أو التي تستخدم طريقة أو وسيلة للقتال لا يمكن حصر آثارها، ومن ثم فإن من شأنه أن تصيب الأهداف العسكرية والمدنية دون تمييز.

(١) د. محمود سامي جنيته: بحوث في قانون الحرب، مجلة القانون والاقتصاد ص ١٤٩، العدد الأول من السنة الحادية عشرة، ذي الحجة ١٣٥٩ هـ - يناير ١٩٤١ م.

وقد اعتبر الملحق من قبيل الهجمات العشوائية :

(أ) الهجوم قصفاً بالقنابل الذي يوجه إلى عدد من الأهداف العسكرية الواضحة التباعد والتمييز بعضها عن البعض الآخر والواقعة في مدينة أو بلدة أو قرية أو منطقة أخرى، تضم مركزاً من المدنيين أو الأعيان المدنية على أنها هدف عسكري واحدة.

(ب) الهجوم الذي يمكن أن يتوقع منه، أو يتسبب عنه خسارة في أرواح المدنيين أو إصابة الأعيان المدنية، أو أن يحدث خطأ من هذه الخسائر والأضرار، يفرط في تجاوز ما ينتظر أن يسفر عنه ذلك الهجوم من ميزة عسكرية ملموسة ومباشرة.

(ج) حظر هجمات الروع ضدهم.

٣- ومن ناحية أخرى منع الاتفاق التذرع بوجود السكان المدنيين لحماية نقاط أو مناطق معينة ضد العمليات العسكرية، ولا سيما فى محاولة درء الهجوم على الأهداف العسكرية أو تغطية أو إعاقة العمليات العسكرية.

٤- وقد أوجب الاتفاق على كافة الأطراف اتخاذ التدابير الوقائية لعدم إصابة السكان المدنيين: فيجب أن تبذل رعاية متواصلة فى إدارة العمليات العسكرية من أجل تفادى السكان المدنيين والأعيان المدنية. كما يجب تجنب إقامة أهداف عسكرية داخل المناطق المكتظة بالسكان أو بالقرب منها، وكذلك يجب اتخاذ أية احتياطات أخرى لحماية المدنيين.

من ذلك ما تقرر فى تصريح بطرسبورج عام ١٨٦٨ من منع استخدام قذائف يقل وزنها عن ٤٠٠ جرام أو منع قذائف تتفتت فى

داخل الجسم مثل "قذائف دمدم Dum-dum"^(١). وكذلك الأسلحة البكتريولوجية، والغازات السائلة أو المنتجات السامة^(٢).

ويسرى هذا الحظر على أسلحة التدمير الجماعي، وهي على الخصوص الأسلحة الذرية، التي تعبر من ناحية أسلحة سامة، كما أنها تسبب آلاماً لا مبرر لها، وتحدث آثاراً أخرى مدمرة للبشرية، ولذاتها بل ولكرامتها.

وقد بحثت هذه المسألة في مؤتمر جنيف الخاص بتدعيم وتطوير اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩م والذي عقد عدة دورات ابتداء من عام ١٩٧٢ حتى عام ١٩٧٧م وقد استقر الرأي على إضافة أنواع جديدة من الأسلحة التي تسبب آلاماً لا مبرر لها، والتي كثر استخدامها في النزاعات الدولية المسلحة ومنها النابالم والفوسفور الأبيض، وغيرهما من الأسلحة التي تصيب المدنيين والعسكريين على السواء بآلام شديدة لا مبرر لها.

ومع ذلك فإن الدول الكبرى التي تملك أسلحة ذرية، وقفت ضد اختصاص المؤتمر بالنص على تحريم الأسلحة الذرية على أساس أن ذلك يدخل في اختصاص لجنة نزع السلاح التي شكلت في إطار الأمم المتحدة.

وفي ترسيخ مبدأ التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين ركزت المادة ٤٨ من البروتوكول الأول الملحق باتفاقيات جنيف ١٩٤٩ والمعتمد في ١٩٧٧ على ذلك بقولها "تعمل أطراف النزاع على التمييز

(١) راجع إعلان لاهاي ١٨٦٤م .

(٢) تصريح واشنطن الصادر عام ١٩٢٢ وبروتوكول جنيف الموقع في ١٧ يونيو عام ١٩٢٥م .

بين السكان المدنيين والمقاتلين وبين الأعيان المدنية والأهداف العسكرية، ومن ثم توجيه عملياتها ضد الأهداف العسكرية دون غيرها، وذلك من أجل تأمين احترام وحماية السكان المدنيين والأعيان المدنية". ولا يقتصر التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين على النزاعات الدولية المسلحة فقط، بل يمتد أيضاً إلى النزاعات المسلحة غير الدولية أيضاً، وإن لم يرد نص خاص في البروتوكول الثاني الخاص بالنزاعات المسلحة غير الدولية عام ١٩٧٧م إلا أن ما ورد في المادة الثالثة المشتركة في اتفاقيات جنيف الفقرة الأولى البند الأول حرف (أ) من النص على حماية الحياة والسلامة البدنية للأشخاص الذين لا يشتركون في الأعمال العدائية، يفترض احترام هذه القاعدة ورسوخها، كما أن نص المادة ٢/١٣ من البروتوكول الثاني ١٩٧٧ على حماية المدنيين وحظر الهجوم عليهم أيضاً وحظر أعمال العنف أو التهديد أو التي ترمى إلى بث الذعر بينهم يعنى في وضوح تمييز المدنيين عن المقاتلين.

١. التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين في الشريعة الإسلامية
ومن يقاب النظر في الفقه الإسلامي يستطيع أن يجد مبدأ التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين راسخاً، ويقوم على أساس قوله - تعالى - :
﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقد ورد عن ابن عباس وعن ابن عبد العزيز ومجاهد أن معنى هذه الآية: قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم ولا تعتدوا في قتل النساء

والصبيان والرهبان وشبههم^(١)، وعلى ذلك فإن أعمال القتال لا توجه إلا للمقاتلين الذين أعدوا أنفسهم للقتال وتفرغوا له، سواء باسروا القتال بالفعل أم كانوا احتياطيين مدخرين لوقت الحاجة، أما غيرهم ممن لا يقوى على القتال من الشيوخ والعجزة والنساء والأطفال والمتفرغين للعبادة والفلاحين والتجار والصناع، فهؤلاء غير مقاتلين لا توجه إليهم أى من الأعمال الحربية.

ويدعم هذا المبدأ أيضاً كثير من أحاديث الرسول ﷺ ومنها: ما رواه رباح بن الربيع أنه خرج مع رسول الله ﷺ في غزوة غزاه، وعلى مقدمته خالد بن الوليد، فمر رباح وأصحاب رسول الله ﷺ على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة فوقوا ينظروا إليها ويتعجبون من خلقها حتى لحقهم رسول الله ﷺ على راحلته، فانفجروا عنها، ووقف عليها رسول الله ﷺ فقال: "ما كانت هذه لتقاتل، وقال لأحدهم الحق خالداً فقل له: لا تقتلون ذرية ولا عسيفاً"^(٢).

وكان رسول الله ﷺ إذا أمر أحداً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بنقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: "اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً"^(٣).

(١) الجامع لأحكام القرين، القرطبي (١ / ٣٤٨)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (١ / ٢٢٦).

(٢) سنن ابن ماجه - كتب الجهاد - باب الإغارة وقتل النساء والصبيان، (٣ / ٩٤٨).

(٣) صحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير باب تأمير الإمام والأمراء على البعث، مجلد ٤ ج -

١٢، ص ٣٧.

وعن أبي بكر الصديق أنه بعث جيوشاً إلى الشام فخرج بمشى مع يزيد بن أبي سفيان، وكان أمير ربع من تلك الأرباع، ومما قاله أبو بكر له: إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له، وستجد قوماً حلقوا عن أوساط رؤوسهم من الشعر فاضرب ما ظهر عنه بالسيف، وإني موصيك بعشر: "لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماء، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكله ولا تحرقن نخلاً ولا تغرقنه ولا تغلل ولا تجبن"^(١).

وإذا كان التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين مبدأ راسخاً في النزاعات الدولية فهو أشد رسوخاً في النزاعات الداخلية بين المسلمين إذ المحافظة على أرواح غير المقاتلين من المسلمين أولى بكثير من الحفاظ على غير المسلمين، ويدل على ذلك ما قاله الرسول ﷺ لعبد الله بن مسعود: هل تدري يا بن أم عبد كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: "لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فيؤها" وإذا كان الواجب عدم الإجهاز على الجريح أو قتل الأسير، فوجب ترك من لا يقا تل أولى.

٢. احترام مبدأ حسن النية في الأعمال الحربية:

ويميز الفقه بهذا الصدد بين الحيل المشروعة Ruses Licites وبين وسائل الخديعة Les moyens Perfides ، فالأولى مشروعة، والأخيرة غير مشروعة، وعلى ذلك فمن المباح نصب كمائن للعدو أو

(١) موطأ مالك، كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل لناس، والولدان في الغزو (٢/٢٥٨).

استدراجه للنيل منه، إنما من المحظور استخدام علامة أو إشارة معروفة ومحمية دولياً كعلامات الصليب الأحمر، أو الأعلام البيضاء، لستر عمليات حربية^(١).

وهناك التزام عام آخر على المحاربين وهو إنقاذ واحترام الحياة الإنسانية بقدر الإمكان لذلك يجب الكف عن القتال فور إلقاء العدو للسلح أو عرضه التسليم، وكذلك يحظر التعامل مع غير المقاتلين معاملة لا تتفق مع حالتهم.

ومن المسائل محل المناقشة استخدام زى للعدو أو علاماته. ونحن نعتقد أنها تعد من قبيل الخديعة المحرمة كذلك.

(١) نظم المؤتمر الدبلوماسي لتأكيد وتطوير القانون الدولي الإنساني المطبق في النزاعات المسلحة والذي عقد أربع دورات في جنيف (٧٤-١٩٧٧) هذه المسألة في البروتوكول الأول الذي أعد ليحلق باتفاقيات جنيف المبرمة في أغسطس عام ١٩٤٩م تحت عنوان "حظر الغدر" ونص على أنه "يحظر قتل الخصم أو إصابته أو أسره باللجوء إلى الغدر. وتعتبر من أعمال الغدر تلك الأفعال التي تستثير ثقة الخصم مع تعمد خيانة هذه الثقة، وتدفع الخصم إلى الاعتقاد بأن له الحق أو عليه الالتزام بمنح الحماية طبقاً لقواعد القانون الدولي التي تطبق في النزاعات المسلحة" وهدت الاتفاقية هذه الأفعال كأثلة على الغدر:

(أ) التظاهر بنية التفاوض تحت علم الهدنة أو الاستسلام.

(ب) للتظاهر بعجز نتيجة جرح أو مرض.

(ج) التظاهر بوضع المني غير المقاتل .

(د) التظاهر بوضع يكتل الحماية . وذلك باستخدام شارات أو علامات أو إذاعات محايدة خاصة بالأمم المتحدة أو إحدى الدول المحايدة أو غيرها من الدول التي ليست طرفاً في النزاع (المادة ٣٧)، ولم تحظر الاتفاقية خدع الحرب وهي تلك التي "لا تستثير ثقة الخصم في الحماية التي يقرها القانون الدولي" والتي تهدف إلى تضليل الخصم أو استدراجه إلى المخاطرة، ولكن لا تخل بأية قاعدة من قواعد ذلك القانون التي تطبق في النزاع المسلح. ومن الأمثلة التي ذكرتها للحيل المشروعة: استخدام أساليب التمويه والإيهام وعمليات التضليل وترويج المعلومات الخاطئة.

ويتضح من ذلك أن الخصوصية الأساسية لقانون الحرب مراعاته للإنسانية، وعدم الإضرار بها.

وهكذا، فأثناء ممارسة العمليات القتالية" يجب أن يخضع كل طرف أعماله لمبدأ أن الاستخدام الشرعي للسلاح أو لوسيلة الإيذاء لا ينبغي أن ترجح الهدف العسكري المبتغى من استخدامه" بمعنى أن يستهدف إخراج خصمه من المعركة بصرف النظر عن الإضرار به أو إيذائه.

ونعتقد أن هذا المبدأ قد نتج من التعاليم الإسلامية أساساً، إذ لم يعرف في أوروبا إلا منذ زمن حديث.

وقد سبق أن ذكرنا أول المبادئ التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية فيما يخص بالعلاقات مع غير المسلمين، مبدأ احترام الكرامة الإنسانية، ولهذا المبدأ تأثيره المهم على قانون الحرب الإسلامي ، وقد نقل عن الرسول ﷺ أنه كان يوصي صحابته وقواده بقوله: "انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا ، وإياكم والمثلة وأصلحوا وأحسنوا، فإن الله يحب المحسنين".

وتأسيساً على ذلك فإن الإسلام فرق بين المحاربين وغير المحاربين: فالأعداء غير المحاربين الذين لا يشتركون في القتال، ولا يقدرّون على ذلك يتمتعون بحماية خاصة، ويستثنون من الأعمال

العدائية، لذا لا يحل قتلهم ولا مهاجمتهم ولا التعرض لهم بأى وجه آخر^(١).

كما فرض الإسلام على المسلمين حسن معاملة أسرى الحرب وجرحاها ومرضاها؛ بل إن القرآن الكريم قد أوصى بذلك فى محكم آياته فى قوله - تعالى - : ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

ونشير فى النهاية إلى أن الواقع العملى كثيراً ما لا يحترم هذه المبادئ؛ وعلى نحو ما نرى فى مبدأ التفرقة بين المحاربين وغير المحاربين، فلم يعد الآن لهذه التفرقة أية قيمة بعد استخدام الطيران، ومحاولة الدول المتحاربة إضعاف الروح المعنوية لدى عدوها باستخدام الحرب الشاملة التى تمس كل فئات الشعب المحاربة وغير المحاربة. كذلك كثيراً ما تخالف الدول الحظر المفروض على الأسلحة وتستخدم أنواعاً محرمة منه، وهكذا.

وتقوم إسرائيل بمخالفات كثيرة وواضحة لهذه القواعد منذ قيامها ضد الفلسطينيين والعرب بشكل عام، وقامت سياسة شارون الذى كان دخوله المسجد الأقصى عام ٢٠٠١م سبباً لقيام انتفاضة الأقصى الثانية على أساس تصفية المقاومين النشطاء، وساعدته الولايات المتحدة الأمريكية بإدخال حركات المقاومة الشرعية للاحتلال، حماس، والجهاد، ضمن الجماعات الإرهابية التى يجب تصفيتها، كذا استخدام الطائرات المحاربة وأشد أنواع القذائف فى ضربه للمقاومة، وقتل فى عملية

(١) محمد بن الحسن الشيبانى: السير الكبير (١/٢٩-٥٥) محمد عبد الله دراز: القانون

الدولى العام فى الإسلام، المجلة المصرية للقانون الدولى، ص ٩٠٨ عام ١٩٤٩م.

واحدة فى ٢٦ يوليو ٢٠٠٢م ثمانية أطفال وستة أفراد وامرأة من المدنيين من منطقة مأهولة بالسكان فى غزة.

ثانياً: مبدأ الضرورة :

من المبادئ الرئيسية التى يقوم عليها قانون الحرب هى أن أعمال العنف تباح فقط بالقدر الضرورى لتحطيم قوى العدو المسلحة، وقدرته على القتال أو المقاومة. لذا تحظر كل أعمال تجاوز هذا الغرض، وخاصة كل قوة غير ضرورية نحو رعايا العدو أو أمواله، فجواز العنف يقدر بقدر ضرورات الحرب فقط، وبعبارات أخرى فإنه يجوز للمقاتل أن يستخدم أى قدر من القوة بشرط أن يكون ذلك ضرورياً لتحقيق هدف الحرب، وهو التغلب على الخصم، وقد رتب القانون الدولى على ذلك مجموعة من النتائج، فمن ناحية يجب على المقاتلين أن يميزوا بين الأهداف العسكرية، وهى التى تستخدم فى القتال أو تتعلق به ويحق ضربها، والأهداف المدنية، أى البعيدة عن القتال أو التى لا تتصل به فلا يجوز ضربها.

والواقع أن ظهور الحرب الشاملة التى توجه إلى كل أراضي العدو، وتنتج لضرب كافة منشآته مدنية أو عسكرية، قد أثرت تأثيراً كبيراً على هذه القاعدة فى الظروف الحديثة، خاصة بعد أن استخدم الطيران فى إلقاء القنابل والبالونات من أعلى، حيث يصعب التمييز بين الأهداف المدنية والأهداف العسكرية، لذلك حرصت اتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩م والملحقان اللذان أضيفا إليها عام ١٩٧٧ على التأكيد على هذا

التمييز وعلى إعطاء الأهداف المدنية حماية واسعة وسنرى كيف كفلا ذلك الآن.

الأعيان المدنية :

الأعيان المدنية هي كافة الأشياء التي لا تمثل أهدافاً عسكرية، ومن ثم لا تجوز مهاجمتها، والأهداف العسكرية هي الأعيان التي تسهم مساهمة فعالة في العمل العسكري سواء كان ذلك بطبيعتها أم بموقعها أم باستخدامها ، والتي يحقق تدميرها التام أو الجزئي، أو الاستيلاء عليها أو تعطيلها في الظروف السائدة وقت الحرب ميزة عسكرية أكيدة^(١).

وقد أعطت المواثيق الدولية حماية خاصة للأعيان الثقافية وأماكن العبادة، فمنعت توجيه أى عمل من الأعمال العدائية ضد الآثار التاريخية أو الأعمال الفنية أو أماكن العبادة، ومنعت كذلك استخدامها في دعم المجهود الحربي، أو اتخاذها محلاً لهجمات الردع^(٢).

وتضمنت المواثيق الدولية كذلك حماية الأعيان والمواد الضرورية لحياة السكان المدنيين مثل المواد الغذائية والمناطق الزراعية والمواشى ومرافق مياه الشرب.

ونجد حرصاً في الوثائق الحديثة على حماية البيئة الطبيعية والأشغال الهندسية والمنشآت المحتوية على قوى محرقة حتى ولو كانت أهدافاً عسكرية، وذلك إذا كان شأن مهاجمتها ترتيب خسائر فادحة

(١) المادة ٢/٥٢ من البروتوكول الملحق وقد حرص الملحق على إضفاء الصفة المدنية على الهدف حتى لو تار شك حول استخدامه في هدف عسكري مادام أنه مخصص أساساً للأعمال المدنية، كما لو استخدمت مدرسة أو دار عبادة مثلاً لهدف عسكري.

(٢) راجع اتفاقية لاهاي المبرمة فى ١٤ مايو عام ١٩٥٤، وكذلك أحكام المادة ٥٣ من البروتوكول الملحق باتفاقيات جنيف.

بين السكان المدنيين، ومن أمثلة ذلك السدود والجسور والمحطات النووية لتوليد الكهرباء.

المواقع والمناطق المجردة المنزوعة السلاح :

حظر البروتوكول الملحق باتفاقيات جنيف على الأطراف المتحاربة أن تمد عملياتها العسكرية إلى مناطق تكون قد اتفقت على إسباغ وصف المنطقة المنزوعة السلاح عليها. وأوجب تحديد هذه المنطقة بدقة وإظهارها بعلامات واضحة، فضلاً عن استلزام توافر العديد من الشروط فيها^(١)، ولا يجوز لأى من الأطراف أن يستخدم المنطقة فى أغراض تتصل بإدارة العمليات العسكرية أو أن ينفرد بإلغاء وضعها.

وحظر البروتوكول الملحق كذلك على الأطراف، أن يهاجموا بأية وسيلة المواقع المجردة من وسائل الدفاع، ويكتسب الموقع هذه الصفة بإعلان من أحد الأطراف يبين أن موقعاً ما يقع بالقرب من منطقة تمارس القوات المسلحة أو داخلها خالياً من وسائل الدفاع، ويشروط هى: أن يتم إجلاء القوات المسلحة والأسلحة والمعدات

(١) أهم هذه الشروط هى :

- ١- أن يتم إجلاء جميع المقاتلين وكذلك الأسلحة المتحركة والمعدات العسكرية المتحركة عنها.
- ٢- ألا تستخدم المنشآت والمؤسسات العسكرية الثابتة استخداماً عدائياً.
- ٣- ألا ترتكب أية أعمال عدائية من قبل السلطات أو السكان.
- ٤- أن يتوقف فيها أى نشاط يتعلق بالمجهود الحربى.

المتحركة عنه، وألا تستخدم المنشآت العسكرية الثابتة عليه استخداماً عدائياً، وألا يجرى أى نشاط فيها دعماً للعمليات العسكرية.

ولا يفوتنا أن نذكر موقف الفقه الإسلامى من هذه القضية، فالمأثور عن الخلفاء الراشدين، وعلى رأسهم الخليفة أبو بكر الصديق تحريم "تخريب البنيان وإحراق النخيل وقطع الكروم وسائر الأشجار المثمرة"^(١)، وقد ذكر الإمام الأوزاعى فى هذا المعنى "لا يحل للمسلمين أن يفعلوا شيئاً مما يرجع إلى التخريب فى دار الحرب، لأن ذلك فساد والله لا يحب الفساد".

وعلى هذا رأى الحنابلة فى جملتهم، أما المذاهب الأخرى فهى مختلفة فكثير من الأحناف أسقطوا الحصانة عن أموال العدو وأجازوا حرقها أو تخريبها، بينما منع البعض الآخر الاعتداء على الحيوانات أو الطيور فقط دون الزروع والثمار.

(١) أوصى أبو بكر يزيد بن معاوية يوم بعثه على جيش الشام بما ورد نصه "إني موصلك بعشر فاحفظهن":

١- أنك ستلقى أقواماً زعموا أنهم فرغوا أنفسهم لله فى الصوامع، فذرهم وما فرغوا له أنفسهم.

٢- وستلقى أقواماً قد حلقوا أوساط رؤوسهم فافلحها بالسيف.

٣- ٥- ولا تقتلن مولوداً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً.

٦- ٨- ولا تعقرن شجرة مثمرة، ولا تحرقن نخلاً، ولا تقطن كرمأ.

٩- ١٠- ولا تدبحن بقرة ولا شاة وما سوى ذلك من المواشى إلا للأكل.

وزادت بعض الروايات على ذلك "ولا تغلن ولا تعصين".

راجع السير الكبير (١/٢٣) - وراجع أيضاً صبحى محمصانى، القانون والعلاقات الدولية فى الإسلام، ص ٢٦٢ .

ولا شك عندنا في رجاحة الرأي الأول، لأنه هو الذي يتفق مع مبادئ الإسلام حيث جاء بالقرآن الكريم بالتوجيه الرباني: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧].

كما وصف الكافر بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

المبحث الثانى

التسامح وحماية ضحايا النزاع المسلح

اهتمت الاتفاقات التى تمت فى مراحل متقدمة من التاريخ الحديث بحماية ضحايا الحرب من الأسرى والجرحى والمرضى، وكانت حماية هذه الفئات هى التى تغلب على الطابع الإنسانى فى الحرب، ذاتها وعند استخدام القوة المسلحة أياً كان شكل استخدام هذه القوة.

وهكذا نجد أن ضحايا الحرب وهم الجرحى والمرضى والغرقى والأسرى وأيضاً المدنيين فى الأراضي المحتلة قد كفلت الحماية لهم قواعد دولية عرفية شهدت التقنين الدولى فى أكثر من مناسبة، وإن اتخذت الشكل الأساسى المتطور فى اتفاقيات جنيف المبرمة عام ١٩٤٩م والتى اكتملت بملحقين بروتوكولين أضيفا إليها عام ١٩٧٧م فى المؤتمر الدولى الذى عقد تحت رعاية منظمة الصليب الأحمر الدولية^(١). ويهمننا أن ندرس هنا الحماية المقررة للأسرى والجرحى والمرضى بشكل عام لنتكلم بعد ذلك عن وضع المدنيين فى ظل الاحتلال الحربى عند حديثنا عن قانون الاحتلال الحربى.

(١) الاتفاقية الأولى خاصة بتحسين حال الجرحى والمرضى من أفراد القوات المسلحة فى الميدان ، والثانية خاصة بتحسين حال الجرحى والمرضى والغرقى من أفراد القوات المسلحة فى البحار، والثالثة خاصة بمعاملة أسرى الحرب، أما الرابعة فتتعلق بحماية المدنيين فى الأراضي المحتلة.

ويتعلق الملحق الأول بحماية ضحايا الحرب فى النزاعات الدولية المسلحة، أما الثانى فيتعلق بالنزاعات المسلحة غير ذات الطابع الدولى.

الأسرى:

لعله من الأهمية أن نحدد المقصود بالأسير حتى نعرف الحماية المقررة له. ونجد اتفاقات جنيف قد ربطت بين المحارب والأسير. فذكرت أن كل مقاتل يعد أسير حرب إذا ما وقع في قبضة الخصم. وقد كانت مسألة تحديد المحارب من المسائل المختلف عليها في مؤتمر عام ١٩٧٧م، إذ أن الدول الصغيرة كانت تحاول أن تسبغ حماية وافية على فئات متعددة بحيث يمكن أن يدخل فيها أفراد المقاومة الشعبية دون حاجة إلى استيفاء الشروط المعقدة المنصوص عليها في اتفاقيات جنيف على خلاف الاتجاه السائد لدى الدول الكبرى، وأمكن الوصول إلى حل وسط خفف الشروط المطلوبة لحماية أفراد المقاومة الشعبية على ما رأينا من قبل. وهكذا يشمل المحاربون أعضاء القوات المسلحة، بالإضافة إلى أفراد المقاومة الشعبية.

وتبدو أهمية هذا التحديد من زوايا عديدة أهمها أن المحاربين هم الذين لهم حق المساهمة المباشرة في الأعمال العدائية، دون السكان المدنيين الذين ليس لهم هذا الحق، كما لا يجوز من ناحية أخرى أن يوجه ضدهم أى عمل من أعمال القتال^(١)، كما أن المقاتلين هم الذين يعتبرون أسرى حرب، ويتمتعون بحماية خاصة كفلتها اتفاقيات جنيف لهم^(٢).

(١) Fauchille. Traite du droit International vol ٢, P. ٢٦٠.

(٢) يفترض فى الشخص الذى يشارك فى الأعمال العدائية، ويقع فى قبضة الخصم أنه أسير حرب، ومن ثم فإنه يتمتع بحماية هذا الشخص متمماً بوصف أسير الحرب إذا ما تار شت حول استحقاقه لهذا الوصف، وبالتالي يبقى مستفيداً من حماية الاتفاقية الثالثة حتى الوقت الذى تحسم فيه محكمة مختصة الصفة الخاصة به، راجع المادة ٤٥ من البروتوكول الأول الملحق باتفاقية جنيف =

حماية أسرى الحرب :

للمحارب أن يهاجم مقاتلي العدو وأن يجرحهم أو يقتلهم، ولكن إذا ألقوا السلاح صاروا أسرى حرب، وتحكم معاملاتهم اتفاقية جنيف الثالثة.

ومن أهم مبادئ النظام يخضعون له ما يلي:

- ١- يخضع أسير الحرب لسلطة الدولة الأسيرة، وليس للقوات أو للأشخاص الذين اعتقلوهم كما كان الوضع في الماضي.
- ٢- يجب أن يعامل الأسير وفقاً للمبادئ الإنسانية، ولا يجوز اتخاذ أية إجراءات تنال من كيانه وأدميته، ويجب على الخصوص احترام حياتهم وشرفهم ومعتقداتهم، وكفالة ممارستهم لشعائرتهم الدينية، ويجب استعادة الأسرى - في العديد من النواحي بمعاملة تفوق في وضعها تلك التي يعامل وفقاً لها، قوات الدولة الأسيرة، وذلك فيما عدا حظر الخروج من المعسكرات المعدة لهم^(١).

= والخاص بحماية ضحايا النزاعات الدولية المسلحة والموافق عليه في مؤتمر دولي أبرم في جنيف في يوليو عام ١٩٧٧م، هذا اعتبرت اتفاقية جنيف من قبيل أسرى الحرب المدنيين المرافقين للقوات المسلحة.

« en dehors de libere de sortir de campe, ils beneficent, sous, bien des aspects. D'un traitement au moins aussi honorable que les forces armees de la puissanacs detentrib » (١)

وقد قررت اتفاقيات جنيف العديد من الضمانات بهذا الصدد كخطر الاعتداء على حياة الأشخاص وصحتهم وسلامتهم البدنية ولاسيما القتل والمعاملة القاسية كالتعذيب أو التشويه أو أية صورة من صور العقوبات البدنية. وكخطر انتهاك الكرامة الشخصية وبوجه خاص المعاملة المهنية والمحطة من قدر الإنسان والاعتصاب وكل ما من شأنه خدش الحياء.

٣- يجب أن يوضع الأسرى فى أماكن بعيدة عن ميادين القتال، وأن يقدم لهم كل ما يلزمهم من مأكّل أو مشرب أو ملابس.

٤- ألزمت الاتفاقية الدولة الأسيرة بأن تصرف مرتبات للأسرى تساوي تلك التي تصرفها لمن هم فى رتبتهم من رعاياها العسكريين.

٥- يجب العناية بالجرحى والمرضى من الأسرى، وعلى قوات الدولة التي تسيطر على المعركة أن تبحث عنهم وأن تحميهم من الاعتداء، كما ألزمت اتفاقية جنيف الدولة التي تتخلى عن الجرحى فى ميدان القتال أن تترك معهم المعدات الطبية؛ بل والأطباء بقدر يكفل معالجتهم، وحتى لا يكونوا عبئاً على الدولة الأسيرة. وتتمتع المستشفيات ووحدات الإسعاف وأفراد الخدمات الطبية بحماية خاصة نظمتها الاتفاقية.

٦- وضعت اتفاقية جنيف ضمانات خاصة لتنفيذ أحكامها تتمثل فى تقرير حقوق الدولة الحامية من ناحية، وفى الحقوق المقررة لـ "جمعية الصليب الأحمر زيارة أسرى الحرب واتخاذ ما يلزم للمساعدة والرقابة، والقيام بالمساعي الحميدة كلما وجدت ذلك مرغوباً فيه لمصلحة الأسرى، كما أن لها أن تنظم لقاءات بين ممثلى الدول المعنية على أراض محايدة^(١).

ولقد ضرب الإسلام أروع الأمثلة فى حماية الأسرى والرحمة بهم والعناية بشأنهم، ففى توفير الطعام والشراب لهم يفيد الإسلام أن

(١) راجع تفصيلات واسعة عن هذا الموضوع فى رسالة الدكتوراه عبد الواحد الفار، من أسرى الحرب، القاهرة عام ١٩٧٥ ص ٦٠ وما بعدها، ودراسة محبى الدين عشاوى، "حقوق وواجبات أسرى الحرب"، القاهرة ١٩٧٥م، ص ١٦ وما بعدها.

ذلك من أفضل الطاعات وأجل الأعمال التي يتقرب بها المسلم إلى ربه، وقد بين القرآن أن من أجل الطاعات إطعام الأسير فقال - سبحانه - : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨].

ويطبق المسلمون هذا البيان القرآني في صورة إيمانية فريدة يحكيها واحد من أسرى بدر وهو أبو عزيز بن عمير فيقول: "مر بي أخى مصعب بن عمير ورجل من الأنصار بأسرى فقال: شد يدك به فإن أمه ذات متاع، قال: ومكثت في رهط من الأنصار حيث أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غداهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بنا ما يقع في يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحنى بها، قال: فأستحيى فأردها على أحدهم؛ فيردها على ما يمسه^(١). وفي احترام شرف الأسير وكرامته وخاصة النساء منهم جاء عن الرسول ﷺ أنه قال يوم حنين: "لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره- يعني إتيان الحبالى- ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً حتى يقسم"^(٢).

وفي حق الأسرى في الاتصال بذويهم وأقاربهم، وحقهم في المحافظة على الوحدة الأسرية، وعدم التفريق بين الوالدة وولدها، يجمع أهل العلم على أن هذا التفريق غير جائز ويستدلوا على ذلك بما روى

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، منشورات مكتبة المعارف، (٣/٣٠٦-٣٠٧)، كتاب المغازى للواقدي تحقيق د. مارسون جونسن، عالم الكتب، ط الثالثة ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤م ص ٢٤٠.

(٢) سنن أبو داود، كتاب النكاح حديث رقم ١٨٤٤، سنن الدرامي، كتاب السير حديث رقم ٣٢٦٦.

عن عبد الرحمن الحُبلى قال: كنا فى البحر وعلينا عبد الله بن قيس الفزارى ومعنا أبو أيوب الأنصارى، فمر بصاحب المقاسم وقد أقام السبى، فإذا امرأة تبنى فقال ما شأن هذه؟ قالوا فرقوا بينها وبين ولدها؛ قال: فأخذ بيد ولدها حتى وضعه فى يدها فانطلق صاحب المقاسم إلى عبد الله بن قيس فأخبره، فأرسل إلى أبى أيوب؛ فقال ما حملك على ما صنعت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من فرق بين والده وولدها فرق الله بينه وبين الأحبة يوم القيامة"^(١).

جرحى ومرضى الحرب :

هم الأشخاص العسكريون أو المدنيون الذين يحتاجون إلى مساعدة أو رعاية طبية بسبب الصدمة أو المرض أو أى اضطراب أو عجز بدنياً كان أم عقلياً، مما يجعلهم يحجمون عن ارتكاب أى عمل عدائى.

وقد اهتمت اتفاقيات جنيف بهم وأفردت لهم العديد من الأحكام التى تقوم فى جملتها على ضرورة معاملتهم معاملة إنسانية، بحيث يلقون بقدر الإمكان الرعاية الطبيعة التى تتطلبها حالتهم بأسرع ما يمكن، كما حظرت الاتفاقية التمييز بينهم لأى اعتبار سوى الاعتبارات الطبية.

(١) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى، كتاب السير، باب فى كراهة التفريق بين السبى، (١٥٤/٥)، حديث رقم ١٦١٣. وفى معاملة الأسرى بصفة عامة راجع د. ودية الزحيلي، آثار الحرب فى الفقه الإسلام ص ٤٠٤، الشيخ محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية فى الإسلام، ص ١١٤، د. عبد اللطيف عامر، أحكام الأسرى والسبايا فى الحروب الإسلامية، ص ١٤٧.

ومن أخرى يحظر تعريض هؤلاء الجرحى والمرضى لأى إجراء طبي لا تقتضيه الحالة الصحية لهم، ولا يتفق مع المعايير الطبية المرعية التى قد يطبقها الطرف الذى يقعون فى قبضته على رعاياه فى الظروف الطبية المماثلة.

كما حظرت اتفاقية جنيف، بشكل خاص، أن يجرى لهؤلاء الأشخاص ولو بموافقتهم أى عمل من الأعمال الآتية :

(أ) عمليات البتر.

(ب) التجارب الطبية أو العملية.

(ج) استئصال الأنسجة أو الأعضاء بغية استزراعها إلا إذا

اقتضت ذلك الضرورات الطبية.

حماية الوحدات الطبية :

أقرت اتفاقيات جنيف وملحقاتها ضرورة عدم انتهاك الوحدات الطبية، وأوجبت على الأطراف المتحاربة حمايتها، وعدم تعرضها لأى هجوم من جانبهم. وأوجبت على أطراف القتال إخطار بعضهم البعض بمواقع الوحدات الطبية لكل منهم، وعدم اتخاذها ستاراً لستر الأهداف العسكرية لهم، كما أوجبت أن تكون الوحدات الطبية فى مواقع لا يهدد الهجوم على الأهداف العسكرية سلامتها.

حماية أفراد الخدمات الطبية والدينية :

يجب احترام أفراد الخدمات الطبية المدنيين وحمايتهم، ولا يجوز توقيع العقاب على أى شخص لقيامه بنشاط ذى صفة طبية بغض النظر عن شخص المستفيد من هذا النشاط.

وقد حظر بروتوكول جنيف إرغام الأشخاص الذين يمارسون نشاطاً ذا صفة طبية على إتيان تصرفات أو القيام بأعمال تتنافى وشرف المهنة الطبية، أو غير ذلك من القواعد الطبية التي تستهدف صالح الجرحى والمرضى أو أحكام الاتفاقيات الدولية أو على الإحجام عن إتيان التصرفات والقيام بالأعمال التي تتطلبها هذه القواعد والأحكام.

المركبات الطبية :

تتمتع المركبات الطبية بالاحترام والحماية الواجبة، ويدخل في ذلك زوارق النجاة والسفن الطبية والطائرات الطبية، وكذلك طاقمها والعاملين عليها، وتستمر الطائرات الطبية التابعة لأحد أطراف النزاع متمنعة بالحماية أثناء تحليقها فوق المناطق البرية أو البحرية التي يسيطر عليها الخصم فعلياً، بشرط الحصول على موافقة مسبقة على هذا التحليق من السلطة المختصة لدى ذلك الخصم.

ويجب ألا يساء استخدام هذه الطائرات كاستخدامها في جمع أو نقل معلومات ذات صفة عسكرية مثلاً، ويجب على الطائرة أن تبذل قصارى جهدها للكشف عن هويتها وإخطار الخصم بظروف تحليقها.

أما عن حماية الجرحى والمرضى والغرقى في الشريعة الإسلامية فقد قدمت الشريعة الإسلامية لهذه الفئات حماية بالغة سواء كانوا من جيش المسلمين أم من جيش العدو، أما الجرحى والمرضى والغرقى من المسلمين فلا خوف في حمايتهم والإبقاء عليهم وتضميد جراحاتهم، وعدم الإجهاز عليهم، وتشير إلى ذلك أحاديث كثيرة منها: ما روتَه أم عطية الأنصارية قالت: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع

غزوات أخلفهم فى رحالهم، وأضع لهم الطعام، وأداوى الجرحى، وأقوم على الزمنى^(١). وما رواد أنس قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأمر سليم ونسوة معها من الأنصار يسقين الماء ويداوين الجرحى^(٢).

وأما الجرحى والمرضى والغرقى من أفراد العدو : فإنه لا يجوز إبادتهم أو الإجهاز عليهم أيضاً أو إساءة معاملتهم، لأن خطرهم قد زال بسبب جرحهم أو مرضهم أو غرقهم، والإساءة إليهم أو الإجهاز عليهم فى هذه الحالة يعد اعتداءً «والله لا يحب المعتدين» كما أن الحرب تعد ضرورة، والضرورة تقدر بقدرها، فإذا ما زال خطر هؤلاء، ولم يعد فى مكنتهم الاعتداء على المسلمين، فإن ضرورة قتالهم تنزول، وهذا ما يتفق والمبادئ الإسلامية، حيث إن قتلهم أو الإجهاز عليهم لا يحقق أية ميزة عسكرية للمسلمين، بل يعد نوعاً من الفساد الذى نهى عنه المولى سبحانه «والله لا يحب المفسدين» .

وإذا وجبت حماية الجرحى والمرضى والغرقى فى الشريعة الإسلامية، فإن كل ما يلزم لغوثهم وتضميد جراحاتهم وحمايتهم تكون حماية واجبة أيضاً مثل حماية أشخاص الوحدات الصحية والهيئات الدينية، وكل من يقوم بالمهام الطبية، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

المفقودون والمتوفون :

استحدث بروتوكول جنيف المبرم فى يوليو ١٩٧٧م أحكاماً تتعلق بالمفقودين والمتوفين، ووضع مبدأ عاماً بهذا الصدد، هو أن من حق كل أسرة معرفة مصير أفرادها. ويجب على كل طرف أن يبحث

(١) نيل الأوطار جـ٧، ص ٢٣٩ .

(٢) نيل الأوطار جـ٧، ص ٢٣٩ .

عن المفقودين الذين يبلغ الخصم عن ققدم، طالما تسمح الظروف بذلك في موعد أقصاه انتهاء الأعمال العدائية.

أما بالنسبة للمتوفين، فيجب عدم انتهاك رفاتهم، كما يجب الحفاظ على مدافنهم وتسهيل وصول أسر المتوفين إليه، وكذلك ممثلي الدوائر الرسمية لتسهيل الوصول إلى هذه المدافن، كما يجب كذلك تسهيل عودة رفات الموتى وأمتعتهم الشخصية إلى وطنهم إذا ما طلب ذلك دولته، أو طلبه أقرب الأشخاص إلى المتوفى ولم تعترض الدولة.

وفى الشريعة الإسلامية: فإن لجثة القتيل أو المتوفى حرمتها وإن كان صاحبها من الأعداء، حيث يحرم الإسلام التمثيل بالجثة سواء بقطع الأنف أو الأذن أو بعض الأطراف، أو قطع الرأس وإرسالها إلى هنا أو هناك لبعض الأغراض، أو بتشويه الجثة وإهانتها بأية طريقة كانت.

وتتضافر الأدلة في تحريم ذلك، ومنها ما روى أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث أميراً على جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً فقال: "اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً"^(١). وما روى عنه أيضاً أنه كان يحث على الصدقة وينهى عن الثملة^(٢)، وعن عمران بن حصين قال: ما قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، الجهاد والسير باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم مجلد ٤: ج ١٢ ص ٣١.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص، باب حكم المحاربين والمرتبين مجلد ٤، ج ١١، ص ١٥٣.

إلا أمرنا بالصدقة، ونهانا عن المثلة قال: ألا وإن من المثلة أن يذر الرجل أن يخرم أنفه^(١).

ولعله من الواضح أن هذه الأحاديث تتضمن النهى عن المثلة بقتلى المشركين، والأصل في النهى أن يكون للتحريم ما لم يصرفه عنه صارف، ولا يوجد هنا هذا الصارف فيبقى على أصله مفيداً للتحريم. ومما يؤكد ذلك ما فعلته هند بنت عتبة بشهيد الإسلام حمزة بن عبد المطلب يوم أحد، حين بقرت بطنه ولاكت كبده، ويعلم الرسول بذلك فيقول: لأن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم - وفي رواية بسبعين رجلاً منهم - ولكن يصح المولى - سبحانه وتعالى - لرسوله الموقف في الحال ويعيده إلى الصواب ويقرر كرامة النفس الإنسانية، وينزل الوحي على رسول الله بقوله - سبحانه -: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦-٢٧].

وأما بالنسبة للمفقودين فلا يوجد في الإسلام ما يمنع من البحث عنهم، ودفنهم ومواراتهم، خاصة وقد كان رسول الله ﷺ يسأل بنفسه عن المفقودين، ويفتقد أحوالهم وإذا ما قام العدو بإخطار الدولة الإسلامية بإخطار الدول الأخرى المعادية بنفس الأخبار أو المعلومات عن المفقودين من رعاياهم، وذلك على أساس مبدأ المعاملة بالمثل.

(١) سنن داود، كتاب الجهاد، حديث رقم ٢٢٩٣ .

وأخيراً لا يجوز للجيش المسلم أن يفسد في الأرض بالتخريب أو قطع الأشجار أو عقير الحيوان، عملاً بقوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِنُفْسٍ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ولأنه حيوان ذو روح فلم يجز قتله.

حماية المدنيين في الأراضي المحتلة^(١)

من أهم القيود التي ترد على سلطات الدولة المحتلة تلك القيود التي تتصل باحترام حقوق المدنيين في الأراضي المحتلة. وقد اهتمت اتفاقية جنيف الرابعة بهذه المسألة ونظمتها بشكل مفصل. وقد عرفت الاتفاقية الأشخاص المقصودين بالحماية بأنهم "الأشخاص الذين يجدون أنفسهم في لحظة ما وفي أي ظرف كيفما كان، عند قيام حرب أو احتلال في أيدي أحد الأطراف المتحاربة أو دول احتلال ليسوا من مواطنيها" (المادة الرابعة).

أما الحقوق التي قررتها الاتفاقية فهي تتفق في جملتها مع قواعد الحد الأدنى للحقوق التي تقرها قواعد القانون الدولي لكل الأشخاص، فهي تقرر الحقوق العامة مثل حق الحياة وسلامة الجسم والعرض والشرف من التعذيب أو الأذى، والحقوق العائلية مثل حق الزواج، وتكوين الأسرة، حرية العقيدة، واحترام ذاتية المواطنين بمنع التأثير على عاداتهم أو تقاليدهم. ونصت الاتفاقية أيضاً على بعض الحقوق

(١) زكريا عزمي : من نظرية الحرب إلى نظرية النزاع المسلح مع دراسة خاصة بحماية المدنيين في النزاع المسلح، رسالة جامعة القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٢٣٦ وما بعدها.

الاجتماعية والاقتصادية كالحق في التعليم، وحق العمل الحر، وحق الملكية.

ولعل من أهم الحقوق التي قررتها هذه الاتفاقية حق الأفراد في البقاء في أراضيهم وعدم جواز نقلهم، والحقوق القضائية التي تتصل بعدم جواز سرعان ما تصدره السلطة المحتلة من قوانين جنائية على السكان بأثر رجعي، وتقييد حقها في اعتقال المدنيين، ووضع قيود على توقيع عقوبة الإعدام، ووضع ضوابط لحماية المعتقلين في الأراضي المحتلة، وضرورة توفير مختلف الضمانات القانونية في التحقيق والمحاكمة^(١).

وقد أدخلت ضمانات إضافية في منح جنيف (١٩٧٧) عالجت العديد من أوجه القصور التي انتابت الاتفاقية الرابعة مثل:

١- تقرير سرعان الاتفاقية الرابعة على اللاجئين والأشخاص غير المنتمين لأية دولة.

٢- تيسير جمع شمل الأسر التي نشأت نتيجة للنزاع المسلح.

٣- تقرير حماية واسعة للنساء والأطفال.

٤- توسيع الضمانات القضائية في التحقيق والمحاكمة مع المدنيين.

ومع ذلك فإن هذا الملحق لم يكفل الحقوق السياسية للسكان المدنيين، كما أعطى لسلطات الاحتلال حق تقييد بعض حقوق الإنسان الأساسية مثل حق إجبارهم على العمل لتوفير احتياجات جيش الاحتلال،

(١) راجع شرحاً وافياً في المراجع الآتية، زكريا عزمي من نظرية الحرب إلى نظرية النزاع المسلح، المرجع السابق ص ٢٢٠ محيي الدين عشاوي، حقوق المدنيين تحت الاحتلال الحربي، المرجع السابق، ص ٣١٧ وما بعدها.

وحق نقل الموظفين العموميين من مراكزهم، وحق المحاكمة أمام محكمة عسكرية سرية، وإن أوجب النطق العلني بالحكم، فضلاً عن القيود العديدة على الملكية العامة والخاصة التي أعطتها الاتفاقيات لسلطات الاحتلال.

حماية المدنيين في الشريعة الإسلامية :

والمدنيون الذين لا صلة لهم بالأعمال القتالية، يبلغ الإسلام في الاهتمام بهم كالفلاحين في المزارع والعمال في المصانع، والأطباء والمرضى في المستشفيات. والطلاب والمعلمون في المدارس، ومن لا ناقة له بالقتال ولا يقدر عليه كالأطفال والشيوخ والنساء وغير ذلك. والمتأمل في الفقه الإسلامي يجد أن الفقهاء قد اتفقوا على مبدأ عام في حماية هؤلاء المدنيين وهو عدم قتل من لا يقاتل، هذا بالإضافة إلى الحماية الخاصة التي قدمتها الشريعة الإسلامية لبعض طوائف المدنيين كالأطفال والنساء وغير ذلك. ونبين ذلك فيما يلي:

أولاً : المبدأ العام في حماية المدنيين :

لقد ركزت الشريعة الإسلامية على المبدأ العام في حماية المدنيين وهو عدم قتل من لا يقاتل، وحيث إن المدنيين لا يشاركون في أعمال القتال لعجز أو شغل كالشيوخ المسنين والنساء والأطفال، والمتفرغين للعبادة والفلاحين والتجار والصناع، فإنه لا يجب توجيه الأعمال العسكرية إليهم. وقد تضافرت على ذلك الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ : فلقد بين المولى - سبحانه وتعالى - الطوائف التي توجه إليهم أعمال القتال والتي لا توجه إليهم بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقَفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٢].

وحول هذه الآية يرى ابن كثير أن معناها: قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا بارتكاب المناهي كما قاله الحسن البصري: من المثلة والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان بغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم^(١).

كما يقول البعض في تفسير قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ : والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الأمنيين المسالمين الذين لا يشكلون خطراً على الدعوة الإسلامية وعلى الجماعة المسلمة كالنساء والأطفال والشيوخ والعباد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين^(٢).

(١) تفسير القرآن الكريم: ابن كثير، (١/٢٢٦)، أيضاً مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، الرازي (٣/١٣٦)، أيضاً الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي، المجلد الأول (٢/٣٤٨).
(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب، (١/١٨٨).

من السنة النبوية :

أما السنة النبوية فقد أكدت على عدم قتل المدنيين الذين لا يشتركون في أعمال القتال لأن الإسلام لا يوجب القتال على المسلمين إلا ضد من قاتلهم أو وقف في وجه دعوتهم، ولذا فهو لا يتجه إلى المدينة في الحروب فيبيدها أو الحضارة التي تعب الإنسان في بنائها أزماناً طويلة فيزيلها، ومن الأدلة على عدم قتل من لا يقاتل من السنة ما يلي:- ما روى أن امرأة وجدت في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان^(١).

- ما روى أن امرأة وجدت في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان^(٢).

- ما روى أن رسول الله ﷺ خرج في غزوة غزاها وعلى مقدمة الجيش خالد بن الوليد فمر رياح وأصحاب رسول الله ﷺ على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة فوقفوا ينظرون إليها ويتعجبون منها حتى لحقهم رسول الله ﷺ على راحلته فانفرجوا عنها فوقف عليها رسول الله ﷺ فقال: "ما كانت هذه لتقاتل فقال له: لا تقتلون نرية ولا عسيفاً"^(٣).

- ما روى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: "انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا

(١) صحيح مسلم، الجهاد والسير حديث رقم ٣٢٧٩ .

(٢) مسند أحمد، مسند المكيين، حديث رقم ١٥٤٢٣ .

(٣) نفس المرجع حديث رقم ١٥٤٢٢ .

براً ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب
المحسنيين»^(١).

- ما روى أن رسول الله ﷺ بعث سرية يوم حنين فقاتلوا
المشركين، فأفضى بهم القتل إلى الذرية، فلما جاءوا قال رسول الله ﷺ:
"ما حماكم على قتل الذرية" قالوا يا رسول الله إنما كانوا أولاد
المشركين، قال "وهل خياركم إلا أولاد المشركين، والذي نفس محمد
بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها"^(٢).
ومن الواضح أن كل هذه الأحاديث تحرم بصفة عامة قتل من لا
يقاتل من المدنيين.

ثانياً : الحماية الخاصة لبعض طوائف المدنيين :

وإلى جانب المبدأ العام الذي يؤكد حماية المدنيين بصفة عامة،
لأنهم لا يقاتلون ولا يشتركون في أعمال القتال، فقد قرر الإسلام وركز
على حماية بعض الفئات الخاصة التي من شأنها ألا تقاتل، ونبين هذه
الفئات فيما يلي :

(١) رجال الدين :

مادام رجال الدين لا يحاربون، ويفرغون أنفسهم للعبادة فلا
يجوز توجيه أعمال القتال إليهم، وقد ورد النص على ذلك صراحة في
وصية أبي بكر ليزيد بن بن معاوية (ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا
أنفسهم في الصوامع للعبادة، فدعهم وما زعموا). وهكذا يبعد الإسلام

(١) سنن أبي داود، الجهاد حديث رقم ٢٢٤٧ .

(٢) مسند أحمد، سند المكيين، حديث رقم ١٥٠٣٦ .

المعابد والزهبان عن موضع السيوف، أو أبعدها عنهم إذا شئنا الدقة. وهكذا يجب أن تكون هذه القاعدة محترمة في كافة الأوقات^(١).

مع ذلك تشير وصية أبي بكر إلى فئة أخرى من رجال الدين البيزنطيين هم هؤلاء الذين قد فحصوا أوساط رؤوسهم من الشعر، وتركوا منها أمثال العصائب، فهذه الفئة تشترك في القتال بالفعل، ولقد كانوا يدعون إلى القتال بقسوة وشراسة ضد المسلمين. ولا يوافقون أبداً على وقف القتال.

ولا شك أن لهذا الحكم أهميته البالغة، ذلك أنه يتمشى مع مبادئ الإسلام الحنيف في تجربة حرية العقيدة تحقياً لقوله - تعالى -: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فالإسلام فد أمر بحماية هذه الفئة التي من المفروض أنها تعمل على خلاف مصلحة المسلمين، وتبشر بدين آخر، وهذا ما يؤكد حرية الدين، بل إن من الأسباب التي تجيز للمسلمين أن يقاتلوا من أجلها تحقيق حرية العقيدة وحرمة أماكن العبادة، لقوله - تعالى -: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

(١) يجب تفسير هذا الحكم على ضوء القاعدة العامة، وهي عدم جواز قتل من لا يقاتل، لذا قام رجال الدين بالاشتراك في القتال أو التحريض عليه - كما كان يفعل بعض رجال -الدين الرومان في أثناء حروب المسلمين بالشام - فإنهم يقاتلون لأنهم يعتبرون من المقاتلين في هذه الحالة.

Mohamed Abu Zahra, Concept of war in Islam. Studies of Islam Series, No ٢ ١٩١٦ P.٤٥ .

وواضح من الآية الكريمة أنه لا فارق بين المساجد وغيرها من أماكن العبادة من ناحية الحرمه^(١)، وتؤكد السنة القولية هذا الحكم، فقد روى عن الرسول ﷺ أنه قال: "لا تقتلوا أهل الأديرة"^(٢).

(٢) النساء :

لهذه الفئة كذلك حصانة خاصة من القتل بحكم أنها لا تقاتل، وقد أكدت السنة العملية ذلك، لقد غضب الرسول ﷺ غضباً شديداً عندما شاهد جثة امرأة في إحدى الغزوات، وأرسل إلى خالد بن الوليد الذي كان في مقدمة الجيش ينهأه عن ذلك وقال ﷺ: "ما كانت هذه لتقاتل" مع ذلك إذا استأسدت المرأة وامتشقت الحسام والبنديفة جاز قتلها^(٣).

وحكمة ذلك أنه يفترض في المرأة الرقة، وعدم القدرة على القتال المعروف في ذلك الزمان، لذا لا تحارب بحسب الأصل، وإذا خالفت المرأة هذه القاعدة، فقد انتفت حكمة عدم قتلها، ولعل هذا الاستدراك يتوقع الزمن الحاضر، وإمكان المرأة أن تمارس فيه ألواناً من الحروب، لذا لا يجوز تركها تقاتل دون أن تقتل.

(٣) الأطفال والعجزة :

هم أيضاً لا يقاتلون لضعف بنيتهم وعدم قدرتهم على الحرب، والمقصود بالأطفال الصغار الذين لم يبلغوا سن البلوغ الشرعي، والذي

(١) صبجى محمصانى: القانون والعلاقات الدولية فى الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٢ ص ٢٤٠ .

(٢) السرخسي المبسوط، القاهرة ١٣٢٤ هـ، (٦٩/١٠) .

(٣) نيل الأوطار للشوكانى، شرح منتقى الأخبار، (١٢٥٥هـ) المطبعة العثمانية بمصر.

حدده معظم المذاهب بتمام البلوغ الطبيعي أو بتمام الخامسة عشر من العمر^(١). وقد ثبت النهى عن قتل هذه الفئة من أقوال الرسول ﷺ الذي قال: "ما بال أقوام تجاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية وكررها ثلاثاً".

ويلحق بالأطفال الكبار العجزة، والمجانين والمعتوهون والعمى والمقعدون ومقطوعو اليد اليمنى، ومقطعو اليد والرجل من خلاف^(٢). وقد اشترط الفقهاء فيمن يصلح كجندى مقاتل الصحة والقوة وعدم العاهة الجسدية، وقد استندوا في ذلك إلى العديد من الآيات. منها قوله - تعالى - : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة: ٩١]. وبمفهوم المخالفة استثنوا هذه الفئات من المحاربين.

(٤) التجار والزراع :

هناك اتجاه قوى فى الفقه الإسلامى بوجوب عدم مقاتلة التجار والزراع، ويلحق بهم الصناع وأصحاب المهن الأخرى، وذلك بحكم أنهم غير محاربين ويبدو أن أقلية من الفقه هى التى تتجه إلى ذلك

(١) صبغى محمصانى: النظرية العامة للموجبات والعقود فى الشرع الإسلامى، بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٢م (٨٨/٢). ويروى عن ابن عمر قوله أنه: عرض على رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة، فلم يجزنى.
(٢) يقول الله - تعالى - : "لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ" [الفتح: ١٧].

(الأوزاعي، أحمد بن حنبل) لأن الغالبية رأَت الأخذ بحرفية الوصايا الصادرة عن الرسول وعن الخلفاء وهي لا تشير إلى هؤلاء.

ونحن نرى قصر القتال على من يقاتل وفقاً للقاعدة العامة فهؤلاء إذا ما جنوا دخلوا في فئة المحاربين، ولكن طالما بقوا بدون تجنيد، فهم غير مقاتلين ولا يحل قتلهم.

ويدعم هذا الرأي من كتب من الفقهاء المحدثين في هذا الموضوع، فالشيخ محمد أبو زهرة يقول: إن النبي ﷺ قد نهى عن قتل الضعفاء وهم العمال الذين يستأجرون للعمل: لا يحاربون، ولا يقومون بعمل فيه تقوية للجيش^(١).

الحالات التي تسقط فيها الحصانة عن غير المقاتلين :

ذكرنا أن الحصانة تسقط عن هذه الفئات إذا ما شاركوا في قتال، ولكن هل تسقط في حالات أخرى ؟

يبحث الفقهاء في هذا الصدد ما إذا تحرش الأعداء بالنساء أو الأطفال أو بطوائف مما ذكرت حين الزحف والتحام القتال، أو حاصرهم في حصن، فهل يجوز القتال على الرغم من تأكيد إصابة هؤلاء؟

(١) يراجع كتابه العلاقات الدولية في الإسلام ص ٢٩٦ .

العمليات العسكرية، كذلك أوجب الملحق على كافة الأطراف أن يبذلوا الرعاية الكافية في إدارة العمليات العسكرية من أجل تفضي أهداف عسكرية داخل المناطق المكتظة بالسكان أو بالقرب منها، كذلك يجب اتخاذ الاحتياطات لحماية المدنيين^(١).

وهكذا تسير الوثيقة التي أبرمت عام ١٩٧٧م مع الآراء المتشددة في الفقه الإسلامي التي قلت منذ أكثر من عشرة قرون. وهي أقل في مراعاتها للإنسانية عن آراء مذاهب أخرى في الفقه الإسلامي كما رأينا.

(١) راجع للمؤلف، قواعد العلاقات الدولية في القانون الدولي والشريعة الإسلامية، المرجع السابق ص ٧٣٤ .

مظاهر التسامح الإسلامي في العلاقة بين المسلمين وغيرهم

أ.د/ محمد بدر معبدي^(*)

أولاً : الإسلام دين التسامح

إذا أمعنا الفكر والتأمل واستعدنا قراءة التاريخ نجد أن الإسلام كان السابق الأكبر إلى بث التسامح، وحرص أول ما حرص على الأخوة الإنسانية بين البشر؛ وربما إلى الوحدة الإنسانية مما اختلفت الألوان وتباينت اللهجات، ولقد قرر الإسلام هذه الحقيقة في أول نداء إنساني من نوعه قبل أن تعرف ذلك المنظمات التي تنادى بحقوق الإنسان، وقبل أن تعلنها المنظمات العالمية واليئات الدولية، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفي العصور المختلفة عمل المسلمون على تدعيم الوحدة الإنسانية، ونشروا التسامح بين المسلمين وغيرهم، وقد رأينا رسولنا العظيم محمداً ﷺ استأجر عبد الله بن أريقط وهو مشرك ليكون دليلاً له في الهجرة، ولا يلزم من كونه كافراً ألا يوثق به في شئ أصلاً، لأن الرسول ﷺ وجد من الحكمة الاستعانة بمثل هذا الرجل ما دام أميناً، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

(*) العميد السابق لكلية الدراسات الإسلامية والعربية - فرع البنات جامعة الأزهر بأسوان.

ثانيا : الاستعانة بغير المسلمين في أعمال الدولة الإسلامية

ومما هو معلوم أن العلماء قد أجازوا لإمام المسلمين أن يستعين بغير المسلمين وبخاصة أهل الكتاب فى بعض الشئون السياسية والحربية، ما داموا أهل ثقة وأهل عهد لا يقاتلوننا، ولا يقفون حجر عثرة فى طريق الدعوة الإسلامية، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨-٩]. والإسلام وهو دين التسامح حرص على رعاية العلماء والحكماء من أهل الملل المختلفة، وقد بلغ بعض النابغين من غير المسلمين الحظوة عند خلفاء المسلمين وعامتهم، يقول الفيلسوف (داربر) أحد المؤرخين الأمريكان " إن المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى واليهود وغيرهم على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام ورفقوهم إلى المناصب المختلفة فى الدولة حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة من يثق فيه من المسيحيين وهو (حنا منسيه)، وقال فى موضع آخر: كانت إدارة المدارس مفوضة إلى المسيحيين تارة وإلى اليهود تارة أخرى، ولم يكن ينظر إلى البلد الذى عاش فيه العالم ولا إلى الملة التى يتبعها أو الدين الذى يدين به؛ بل لم يكن الإسلام ينظر إلا إلى مكانة العالم من العلم والمعرفة، قال الخليفة العباسي المأمون: الحكماء هم صفوة الله من خلقه، ونخبته من عباده لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة، وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة، هم ضياء

العالم، وهم واضعوا قوانينه، ولولاهم لسقط العالم فى الجهل والبربرية، وقال فى موضع آخر: إن العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبى أولادهم من النصرانى^(١)، ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين.

ثالثاً : أمثلة لإثراء غير المسلمين للحضارة الإسلامية

ونذكر بعض العلماء والحكماء غير المسلمين الذى كانت لهم الحظوة فى الدولة الإسلامية :

١- جيورجيس بن بختيشوع: طبيب المنصور ، كان فيلسوفاً كبيراً علت منزلته عند المنصور، فأعلى مكانته حتى على وزرائه، ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار العامة وخرج ماشياً يسأل عن حاله، وحينما طلب من الخليفة أن يعود إلى بلده ليدفن فيه مع آبائه وأجداده، أمر بتجهيزه ومنحه عشرة آلاف دينار، وأوصى من معه بحمله إذا مات فى الطريق إلى مدفن آبائه كما طلب.

٢- نوبخت المنجم وولده أبو سهل: وهما من أصل فارسى ويتبعان مذهب الفرس، حظيا بمكانة عالية عند المنصور، ثم كانت لأبى سهل ذرية مسلمة، وكانوا جميعاً منجمين، ولهم شهرة عظيمة فى علوم الكواكب. تيوفيل بن توما النصرانى : كان على مذهب الموارنة من سكان لبنان، وحظى بمكانة عالية عند الخليفة المهدي، وقد كان منجماً وله كتب فى التاريخ جلييلة، ونقل كتاب أميروس إلى السريانية.

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للشيخ محمد عبده.

٣- بختيشوع الطبيب وجبريل ولده يوحنا ابن ماسويه النصراني وولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة، طبية وغيرها، وخدم الرشيد من بعده إلى المتوكل، ارتفع شأنهم عند الخليفة هارون الرشيد.

٤- يوحنا البطريق : مولى المأمون علا قدره في زمنه، أه بناً على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة.

٥- سهل بن سابور وسابور ابنه وكانا نصرانيين، تولى سابور بن سهل بيمارستان جند نيسابور.

٦- حنين بن إسحاق النصراني: اشتهر أيام المتوكل، وكان من أشهر المترجمين لكتب أرسطو وغيره، وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة في زمن المأمون.

٧- متى بن يونس المنطقي النصراني : كان متفناً في جميع العلوم العقلية، أخذ عنه أبو نصر الفارابي وانتهت إليه الرئاسة في بغداد^(١).

ومن هنا يتضح للجميع مدى اهتمام الدين الإسلامي الحنيف بالعلماء والحكماء، وسعة صدره للغريب والقريب على السواء دون تمييز ولا تفریق فالكل يوزن بميزان واحد، وهو ميزان العلم والحكمة.

رابعاً : من التسامح : الرسول داعياً فحسب

كان من سماحة الإسلام أن أرسل الله نبيه محمداً ﷺ يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل بالتي أحسن لا يجبر أحداً

(١) الإسلام والنصرانية (المرجع السابق).

على قبوله دعوته، ولا يكره الناس على الدخول فى الإسلام مكتفياً بالحجة والإقناع، معلناً أنه لا سيطرة له على الضمائر، ولا سلطان له على القلوب، وظيفته الهداية والدعوة إلى الله بالحكمة والعقل ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحذر عاقبة الظلم والطغيان، وليس من وظيفته ولا اختصاصه إحلال الهداية فى قلوب الضالين، وإيصال اليقين إلى نفوس الحيارى التائهين إنما ذلك لله وحده ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَكَانَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

خامساً : الإسلام انتشر بقوة الذاتية وليس بالسيف

وقد جاء صلوات الله وسلامه عليه بالشرعية السمحة الواضحة والملة القويمة والحنيفية المتسامحة مع كل الملل، جاء بدين الفطرة الذى تهفو إليه الألباب، وتطمئن له القلوب لأن فيه رشدًا من الغي وهدايتها من الضلال وشفاءها من العمى، فهى ميالة إليه بطبيعتها محبة له بفطرتها، متى خلت من الموانع والعوائق لا تروم به بديلاً، ولا تختار سواء ديناً، وإن ديناً كهذا شأنه من التسامح والإنسانية ليس محتاجاً إلى القوة تسنده، ولا إلى السيف يعزز مركزه، ويشيعه فى القلوب، فهو بقوانينه العادلة ونظمه السمحة وتعاليمه المحيية إلى النفوس الكافلة لسعادة البشر فى معاشهم ومعادهم، غنى عن مظاهره الحديد والنار، فهو دين لم يقم صرح جده، ولم يمتد وارف ظله، ولم يحتل مكانه الأول فى نفوس الخاصة والعامّة تحت تأثير شئ ما غير الحجة والبرهان وغير ما جاء به من السماحة واليسر، ومن المبادئ العالية التى عليها وحدها - وإن كابر المبطلون - يقوم نظام الحضارة والعمران، وغيرهما عن أبى هريرة

رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: " ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة" (١) يعنى أن معجزات الأنبياء السابقين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - كان معظمها من قبيل الخوارق الحسية التى تجعل المشاهد يؤمن بها، فإذا مضى زمنها انقضت وانقطع أو كاد المصدقون لها، وأما معجزة نبينا محمد ﷺ أى معظم معجزاته وأهمها القرآن الكريم، فهو الزاخر بالحجج القطعية والبراهين العقلية لا تنفذ عجائبه ولا يخلق بكثرة الترداد، وكلما تعاقبت السنون وتوالت الأجيال، واتسع نطاق العلم وتقدمت الصناعات والفنون، عظمت قيمة هذا الكتاب، وظهر للناس صدق أخباره وحقيقة إعجازه، ومدى تسامحه مع أهل الأديان جميعهم، فبذلك كثر أتباع محمد ﷺ ودخل الملايين فى دين الله أفواجا، فظهر أن قتاله ﷺ وجهاده الكفار والمنافقين لم يكن للإكراه على الدين، وحمل الناس على الدخول فيه بالقوة والقهر؛ وإنما كان لدرء الفتنة وصد هجمات المعتدين، كان لحماية الملة وصيانة الدولة من عبث العابثين وكيد الأشرار والحاقدين، وهذا أمر لا بد منه فى كل زمان ومكان فهو ضروري لكل أمة لها كرامة تحتفظ بها ودين تغار عليه ونظام يحرص على تنفيذه لم يخل ذلك دين سماوى ولا قانون وضعي، ومن أدار نظره فى مختلف القوانين السارية الآن وجدها تنص على استعمال الشدة والقسوة مع كل من يحاول العبث بنظام الدولة وشكل الحكومة أو يعتدي على حريات الناس وعقائدهم وغير ذلك من أنواع العبث والفساد فى الأرض، وفى ذلك يقول الحق فى محكم

(١) رواه البخاري فى كتاب فضائل القرآن حديث رقم ٤٩٨١.

كتابه: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُمْ صَوَامِعُ وَيَبَعَّ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدٍ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ومن هنا يُعلم سقوط ما يدعيه بعض الكتاب الغربيين وأشباههم من أن الدين الإسلامي دين غلبة وقهر لم يقم إلا على القوة والعنف ولم يترعرع إلا تحت بارقة السيوف، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، ولو كان ما تُشذق به هؤلاء له نصيب من الصحة لكان القسيسون والرهبان - نظراً لما لهم من المكانة في دينهم والتوغل في التمسك بعقيدتهم أولى بالإكراه والقتل ممن عداهم - مع أن نبينا محمد ﷺ نهانا عن قتلهم كما نهانا عن قتل النساء والأطفال، فمن وصاياهم عليه الصلاة والسلام لبعض أمراء جيوشه " اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون في الصوامع منعزلين فلا تعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صبياً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تقدموا بناءً " وكان رسول الله ﷺ إذا أقر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل ومن معه من المسلمين، ثم قال: " اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً " (١)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: " إنما بعثني الله مبلغاً ولم يعنى الله متعتاً " (٢) أى أن الله تبارك وتعالى بعثني للناس مبلغاً وحيه معرفاً شرعه مبيناً لهم ما فيه صلاحهم وقوام سعادتهم، ولم يبعثني الله جباراً متشدداً، أكمم أفواه الناس وأضغط على حرياتهم، فأشق عليهم في معاملاتهم، أو أكلفهم من

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير حديث رقم ٤٦١٩.

(٢) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن.

ما فيه صلاحهم وقوام سعادتهم، ولم يعينى الله جباراً متشدداً، أكمم أفواه الناس وأضغط على حرياتهم، فأشق عليهم فى معاملاتهم، أو أكلفهم من الأعمال ما لا يطيقون وألزمهم من الدين ما هم له كارهون، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، أى لا يصح ولا يتصور ولا ينفع الإكراه فى الدين، لأن الدين أساسه الاعتقاد القلبى والإذعان الباطنى، وهذا الأمر لا يجبر عليه المرء إيجاباً، وإنما يقبله طوعاً واختياراً، فالدين بطبيعته يتأبى الإكراه عليه ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وهو خطاب من المولى عز وجل لنبى الإسلام محمد ﷺ، أى لا تكرهوا الناس، ولا تجبروهم على الدخول فى دين الله تعالى، ولا تتعرضوا لهم بسوء ما داموا متمسكين بأحد الكتابين (التوراة والإنجيل) ولم يقاتلوكم أو يظاهروا عليكم أحداً دون أن يحصل منهم خيانة أو غدر.

ويُعضد هذا ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال النبى ﷺ ألا استكرهما فقد أبيا النصرانية، فأنزل الله هذه الآية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وينبغى أن يعلم إقرار الإسلام لليهودى أو النصرانى على دينه وإعطائه الحرية فى القيام بشعائره حتى أنه أوجب على الابن المسلم إذا كان أبوه يهودياً أو نصرانياً، وطلب منه أن يحمله إلى دار عبادته لعجزه عن الذهاب إليها لوجب عليه أن يطيع أباه أو أمه فى ذلك ويوصلهما إلى دار العبادة، ينبغى أن يعلم أن هذا ليس ضعفاً فى الإسلام أو المسلمين، وإنما هى القوة الكامنة فى الإسلام احتراماً للحريات وتوقيراً للديانات وأصحابها وتحققاً

لمبدأ العدالة والإنصاف، فالمسلم يعتقد أن الدين الذي يجب اعتناقه وبه تحصل السعادة في الدنيا والآخرة هو الإسلام دون ما عداه ولكنه مع ذلك يرى من الواجب عليه ألا يتعرض لأحد من أهل الكتابين بسوء؛ فلا يسفك لهم دماً، ولا يهتك لهم عرضاً، ولا يأخذ منهم مالا إلا بحق شرعي، ولا يجور عليهم في حكم من الأحكام، ولا يحول بينهم وبين القيام بشعائهم وواجبات دينهم، ولا يرى بأساً في معاملاتهم وأكل طعامهم، والتزوج بالمحصنات من نسائهم إلى غير ذلك مما هو مسطور ومشهور، فالدين الإسلامي يزن الأمور بقسطاسها المستقيم، فلا يهضم حقاً من حقوق الإنسان الطبيعية ولا يعتدى على شيء من حرياتهم، ولقد كان له سلطان وكان في أبنائه شدة وقوة، لكنهم لم يتخذوا ذلك أداة للسلب والنهب واغتصاب الحقوق الشرعية، ولم يستعملوا الشدة قط لخنق الحريات وإكراه أحد على ما لا يريد، فأين هذا مما نراه اليوم في "فلسطين والقدس العربية الإسلامية ثالث الحرمين وأولى القبلتين حيث يرتكب العدو الصهيوني أقسى ما عرفه التاريخ الإنساني من الوحشية والهمجية وارتكاب المذابح والمجازر التي تشيب من هولها الولدان.

والمسلمون غدوا لا جمع يجمعهم واستمرعوا الذل من أشرار صهيون فأين أبطالنا الشجعان أين هم ؟ يؤدبون عصابات لشـارون أين حماة الإسلام الذين يقلمون أظفار هؤلاء المعتدين ؟ ويؤدبون هؤلاء الأشرار الذين لا همّ لهم إحداث القلاقل، والتعرض للحرمان وتدمير الديار على رؤوس الأبرياء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَتَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

سادسا : صور من تساح الرسول مع غير المسلمين

شأن ما بين موقف وموقف: فموقف اليهود مع الرسول ﷺ وموقفه ﷺ منهم فى خير يحسن أن تقف قليلاً لنسجل حسن مقابلة النبي ﷺ ليهود خيبر بالرغم مما فعلوه معه ﷺ من مكائد يندى لها جبين الإنسانية - كان من بين ما غنم المسلمون من غزوها عدة صحائف من التوراة فطلب اليهود ردها فأمر النبي ﷺ بتسليمها لهم - ويا له من موقف جليل لا يتخذه غير المصطفى ﷺ وغير خلفائه وحاملى المشعل من بعده (١).

إن عظمة هذا الموقف تبدو فى أجلى معانيها إذا لاحظنا أن شريعة الحروب فى ذلك الحين كانت تعطى المنتصر حق التصرف المطلق بحكم الفتح فى شخص المنهزم، وكل ما يملك ومن له عليه ولاية، وأن هذا الزمن لم يكن يعرف ميثاق الأمم المتحدة ولا ميثاق حقوق الإنسان بما ينص عليه من احترام الشعائر الدينية ورعاية الأسرة وعدم التفريق فى المعاملة بسبب اختلاف اللون أو الجنس أو الدين أو الوطن.

وإذا لاحظنا كذلك أن اليهود كانوا أشد أعداء الإسلام خصومة وأكثرهم إساءة إليه، وأخبثهم تأمراً على النبي ﷺ وأصحابه وأنهم لو ملكوا من أمر المسلمين شيئاً لما تورعوا عن التنكيل بهم، وإذا لاحظنا أن الرومان حين فتحوا (أورشليم) أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم، وأن النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى أسبانيا أحرقوا كتباً للتوراة ولكن محمداً ﷺ والذين آمنوا معه يحترمون الصحف التى أنزلت على الرسل من قبله تقديساً لكلمات الله وتوصيات أنبيائه.

(١) القيم الخلقية والإنسانية فى الغزوات، الأستاذ حسن فتح الباب، مطبعة الأزهر، ١٩٧١م.

لقد كانت صفية بنت حُيَ بن أخطب إحدى سبايا (خيبر)، وقد قُتل أبوها، وكان من زعماء يهود بنى النضير، كما قُتل زوجها كنانة بن الربيع في الحرب، فقيل للنبي ﷺ "صفية سيدة بنى قريظة والنضير لا تصلح إلا لك" فأعتقها ﷺ وتزوجها، وفي هذا الزواج دلالة واضحة على تألف جميع أفراد الجماعة حتى العصاة منهم بالرفق بهم الإحسان إليهم من طريق القربى والمصاهرة وما إليها من أسباب التقارب والوحدة لما تكفله لها من مزيد من القوة المعنوية التي لا تقل عن القوة التي يكفلها الانتصار في الحرب وحيازة الغنائم، ولأن مثل هذه الرابطة رابطة المصاهرة من تقاليد العظماء الفاتحين الذين كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التي يفتحونها، وفي ذلك تخفيف عن مصائبهم وحفظ لكرامتهم وزيادة قربى عليهم ضمناً لخدمة مصالحهم واستقرار السلام في أوطانهم وربوعهم.

الرسول ﷺ ينادى بالسلام في كل موقف، مثال فتح مكة:

إن الوقائع الدالة على مقصد الرسول ﷺ كما سطرها التاريخ تطالعنا في كل موقف بحرص الرسول ﷺ على السلام وحرصه أيضاً على حقن الدماء، وعلى هذا الأساس جعل النبي خطته في مباغثة قريش على غرة منهم فلا يجدون له دعواً فيستسلمون من غير أن يكون ثمة قتال وإنجازاً لهذه الغاية تكتم الأمر وأحاط خطته بسياج من السرية فلم يفض به إلى أحد حتى لزوجاته، ولم يخبر المسلمين أنه سائر إلى مكة إلا بعد أن أمرهم بالتجهيز فتجهزوا ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف عن مسيرهم على نبا، وكان الهدف من ذلك ألا يترك

للمشركين الفرصة حتى يستعدوا ويعبثوا قواتهم لقتال المسلمين ليأخذوا الأعداء على غرة فيتحقق الفتح دون إراقة دماء، وتحقق الفتح بفضل صدق توجه الرسول ﷺ وصدق توجه أصحابه، ولذلك أمر الله نبيه ﷺ أن يتوجه بالشكر إلى ربه بعد هذا النصر المبين والفتح الأعظم ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].

حرص الرسول الفاتح على كسب معركة الفتح دون إراقة دماء ومن غير حرب، ويتجلى ذلك في إصدار أمره إلى فرق الجيش كلها ألا تقاتل، وألا تسفك دماً إلا إذا أكرهت على ذلك إكراهاً، واضطرت إلى ذلك اضطراراً، وتجلى ذلك أيضاً في استبدال قيس بأبيه سعد بن عبادة الذي نصبه أميراً على فرقة أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربي وحين بلغه قول سعد وهم يتأهبون "اليوم الملحمة"، غضب الرسول ﷺ وقال: "اليوم يوم المرحمة" وفي سبيل حقن الدماء لم يعترض النبي ﷺ على رغبة عمه العباس بن عبد المطلب في السفارة إلى قريش لتخلي بين ابن أخيه وبين وضع يد المسلمين على البيت الحرام الذي جعله الله مباركاً، ومثابة للناس وأمناً وليقنعها أنه لا جدوى من قتال هذا الجيش العظيم الذي لا عهد للعرب به من الجنود والكمأة والأقوياء.

ولما طلب عمر بن الخطاب أن يضرب عنق أبي سفيان رأس الشرك حينما شاهده مع العباس قال الرسول لعمه وقد رجا أن يجبر أبا سفيان أذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأنتى به وتشهد خيمة رسول الله ﷺ في الصباح مواجهة حاسمة بين الحق والباطل، ويضرب النبي العائد المثل الأعلى في إثارة السلام على الحرب إذ يسلم أبو سفيان،

ويقول العباس للنبي ﷺ: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فيقول رسول الله ﷺ: نعم، من دخل حار أبي سفيان فهو آمن^(١)، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن ثم يهبط الرسول ﷺ كل فرصة ويفتح كل باب ويمهد كل سبيل للسلام لا عن خشية بأس قريش وإنما عن رغبة في السلام وحرصاً على استقراره في أم القرى التي أكرمها الله إذ أوحى الله إلى نبيه إبراهيم أن يقيم فيها قواعد البيت الحرام والتي أكرمها الله حق الإكرام، إذ جعلها ميلاد صاحب الرسالة العظمى سيدنا محمد ﷺ.

ثمة دليل آخر وموقف جليل ينهض على تأكيد قيمة السلام في الإسلام، إذ يفتح الله على رسوله مهبط الوحي فيدخله والمسلمون آمنين مطمئنين، وتضرب قبة للنبي ﷺ على مقربة من قبرى أبي طالب وخديجة، ويسأل الرسول هل يريد أن يستريح في بيته؟ فيجيب الرسول ﷺ: كلا، فما تركوا لي بمكة بيتاً، ثم يخرج ويمتطي ناقته، ويسير بها حتى يبلغ الكعبة، فيطوف بالبيت سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده، وحين يقضى طوافه يدعو عثمان بن طلحة، فيفتح الكعبة فيقف سيدنا محمد ﷺ على بابها، ويتكاثر الناس في المسجد فيخطبهم قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم يسألهم الرسول ﷺ يا معشر قريش: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، ولو شاء الرسول الكريم لأمر بقطع رقاب القوم الذين بغوا وطمغوا في الأرض

(١) انظر الحديث في سنن أبي داود - كتاب الخراج.

وأكثرها فيها الفساد، والذين اتخذوا من دون الله أرباباً، والذين كم اشتد به وبصحابه أذاهم، واشتدت قطيعتهم وانتمروا به ليقتلوه والذين عذبوه وأصحابه وقاتلوه في بدر وفي أحد وحاصروه في غزوة الخندق، ولكنها قيمة الإسلام الحقيقية التي يغرستها الله في نفس نبيه الكريم وصحابته الأجلاء، ويحصل للمسلمين في رسول الله قدوة صالحة وأسوة حسنة فهو يعفو عند المقدرة ليستل من نفوس قريش باعث الحقد والضغينة، ويقضى على عوامل الشحناء، ويزيل الغل من قلوبهم ويطهرهم من رجس الشر ويوثق بينهم عرى الألفة والمحبة بعد أن دخلوا في دين الله أفواجا، والمثل الأعلى الذي يضربه محمد في فتح مكة إنما يضربه للناس في كل مكان وزمان إذ يؤكد بهذا السلوك الكريم معنى السلام كحقيقة أساسية في العقيدة الإسلامية، وضرورة حيوية لا غنى عنها لصالح العالم وخيره.

ولكي يعيش المرء في أمن يكفل له النفع لبناء حياة الرخاء والإسهام في بناء العقيدة وتنمية المجتمع يجب أن يؤمن بالسلام سبيلاً لذلك، وأن يدعم إيمانه بالعمل، فإذا جاءه أخ له في الإنسانية يبغى التعارف والألفة والتعاون فليمد له يده وليمنحه ثقته وليتعاون معه فذلك هو الطريق القويم.

الطريق القويم الذي تصلح به النفوس ويزول منها القلق فيصلح المجتمع وتتقدم البشرية. إن قولة السلام واجبه على المسلم كلما جاءه أحد المؤمنين بدين الله الحق ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤]، بل ولو جاءك أحد من أهل الديانات المشركين وطلب منك النجدة لوجب عليك أن تسارع وتخف إلى نجدته يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ

مَأْمَنَةً ﴿التوبة: ٦﴾، بل إن قولة السلام واجبة حتى لمن اتسم بسوء الخلق حتى لا يتحول الأمر إلى صراع ينتهي بالخصومة والعدوان، وتترسب عنه أحقاد كامنة لا تلبث أن تشعل الحرب من جديد أخذاً بالثأر، وتتوالد بذلك العداوات وتستمر الحروب التي كانت بدايتها لا تعدو لفظاً جارحاً أو سلوكاً نايياً يقول تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

سماحة الرسول وأصحابه في معاملة غير المسلمين :

حينما جاء الصديق أبو بكر بأبيه أبي قحافة - وكان ضريباً - لم يهد الله قلبه للإسلام، فلما رآه النبي ﷺ قال لأبي بكر "هلا تركت الشيخ في مكانه حتى أكون أنا آتية فيه" فقال أبو بكر الصديق هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت، فأجلس الرسول الشيخ بين يديه ومسح صدره، ثم قال أسلم فأسلم وحسن إسلامه، ويمثل هذا المشهد أكثر من قيمة روحية أظهرها رسول ﷺ الله إذ نلتقى بقيمة التواضع والسماحة والعفو عند المقدرة ونلتقى بقيمة الرحمة بالأعمى والشيخ وغيرهما من الضعفاء والتعاطف معهم ولو كانوا من غير المسلمين، كما نلتقى بقيمة الحب والتقدير للأعوان المخلصين، فلقد أكرم سيدنا محمد ﷺ والد صفيه أبي بكر الصديق رضى الله عنه شفقة عليه وتكريماً للصديق الجليل.

ولمّا دخل عمرو بن العاص مصر واستولى على "بلبيس" وجد بها أرمانوسة بنت المقوقس، فلم يمسه بأذى ولم يتعرض لها بشر بل أرسلها إلى أبيها في مدينة (منف) مكرمة الجانب معززة خاطر فعَدَّ المقوقس هذه الفعلة جميلاً ومكرمة وحسبها له حسنة، وساعد فعله هذا في خلق جو

من الحب والود بين المسلمين والأقباط، وحينما فتح المسلمون مصر حافظوا على الكنائس والأديرة وحرروا الإنسان بداية ونهاية.

وقد جاء في معاهدة عمرو بن العاص لأهل مصر هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وأموالهم، وملتهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شئ من ذلك، ولا ينقض^(١).

حقوق أهل الكتاب في الدولة الإسلامية : أصل الحقوق

وقد ثبتت لأهل الكتاب حقوق تقوم كلها على قاعدة أصلية: أن لهم مثل ما للمسلمين، وعليهم مثل ما على المسلمين إلا ما استثنى بنص أو إجماع، وذلك هو مقتضى الشركة في الوطن الواحد، فأول الحقوق التي تشمل حمايتهم من كل عدوان خارجي ومن كل ظلم داخلي، هو تمتعهم بحماية الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

حق الحماية :

فأما الحماية من العدوان الخارجي فيجب لهم ما يجب للمسلمين، ويجب على الحاكم المسلم أن يوفر هذه الحماية لهم ولو كانوا منفردين ببلد" لأمن أحكام الإسلام جرت عليهم وتأبد عقدهم، فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين. بل لقد نص الفقهاء بلسان ابن حزم الظاهري - على أن "من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن

(١) المسيحية والإسلام في مصر: د. حسين كفاي، الهيئة المصرية للكتاب.

نخرج لقتالهم بالكرع والسلاح، ونموت دون ذلك، صوتاً لمن هو في ذمة الله ورسوله، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة".
ويعلق القرافي - المالكي - على هذا النص فيقول: "فَعَقْدُ يُوْدَى - إلى إتلاف نفوس المسلمين وأموالهم في سبيل الدفاع عن أهل الكتاب إنه لعظيم".

وحين كانت القيادة الفقهية الراشدة آخذة مكانها الصحيح في سلم القيادة الإسلامية استمسكت بذلك حتى أصر شيخ الإسلام ابن تيمية على إطلاق من في أسر التتار من أهل الذمة مع إطلاق المسلمين. فقال لقائد التتار "لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً لا من أهل الذمة ولا من أهل الملة" "وأما الظلم في العلاقات الداخلية، فقد تكاثرت على تحريمه نصوص القرآن والسنة. ونطقت باستنكاره في خصوص أهل الذمة أحاديث رسول الله ﷺ والآثار عن الصحابة، حتى صرح غير واحد من الفقهاء بأن قواعد الإسلام تقتضى أن ظلم الذمى أشد إثمًا من ظلم المسلم^(١).

وحق الحماية يشمل الدماء والأنفس والأموال. حتى قال علي رضي الله عنه : "من كانت له ذمتنا قدمه كدمنا ودينه كديننا".
وفي الفقه الإسلامي آراء تختلف وتتفق. يتخير منها الناظر ما وافق هذه الأصول فيقبله. ويرد ما لا يوافقها ولا يعملها والأمثلة على ذلك كثيرة.

(١) حقوق غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص ١٠، طبعة ١٩٧٧م.

حرمة الأنفس والأموال

والأصح : حرمة مالهم ولو لم يكن متقوماً في نظر الإسلام كالخمر والخنزير. وجواز إقامة دور العبادة التي يتعبدون فيها. وقبول شهادتهم إلا في الأمور الدينية للمسلمين من نحو الزواج والطلاق وما يجرى مجراهما. وجواز أمان الفرد منهم موقوف على إجازة الإمام، فإن لم يجزه وجب عليه رد المؤمن إلى مأمنه.

حق تولي الوظائف العامة

ويجب ضمان الحياة الكريمة لهم عند الكبر، بل إن ذلك من فروض الكفايات؛ إذا عجز عن القيام به بيت المال وجب على المسلمين كافة، لا يسقط إلا بأدائه ويجب على الحاكم المسلم فك أسرهم من أيدي المحاربين، والحق جواز تولي القادر منهم الوظائف العامة في الدولة إلا ما كان ذا صبغة دينية كالإمامة ورئاسة الدولة وقيادة الجيوش في الجهاد والولاية على الصدقات ونحوها^(١).

الواجبات المقابلة للحقوق

ومع هذه الحقوق يثبت على أهل الكتاب واجبات أولها: أداء التكاليف المالية من خراج وضرائب وهم في تكليفهم بالخراج والضرائب هم والمسلمون سواء، فليس فيها شيء يجب باختلاف الدين. وإنما تجب على أنواع الأموال والتجارات والأراضي المزروعة دون نظر إلى صاحب أي منها: مسلماً كان أو غير مسلم.

(١) الأقباط والإسلام: للدكتور محمد سليم العوا.

وثانيهما: التزام أحكام القانون الإسلامى. لأنه قانون الدولة التى هم مواطنوها، ويحملون جنسيتها، وهذا كما يجب عليهم يجب على المسلمين من أبناء الدولة. فلا مزية فيه لأحد، ولا نقص يدخل به على أحد.

وثالثهما: مراعاة شعور المسلمين، فلا يجوز لهم أن يسبوا الله ولا رسوله ولا دينه ولا كتابه جهرة، ولا أن يروجوا من الأفكار ما ينافى عقيدة الدولة ما لم يكن ذلك جزءاً من دينهم كالتثليث والصليب عند النصارى، وعلى أن يقتصروا فى ذلك على أبناء ملتهم. ولا يذيعونه فى أبناء المسلمين ليفتنوهم عن دينهم.

وهذا الواجب يقابل الواجب الملقى على المسلم ديناً باحترام ديانات الأنبياء قبل محمد ﷺ، والإمساك عن جدال أهلها إلا بالتي هى أحسن، وبالإحسان إليهم أداء لحق ذمة الله ورسوله والمؤمنين، وإذا انتقلت تلك الحقوق والواجبات فى الدولة الإسلامية العصرية من النطاق العقدى إلى النطاق الدستورى، فإن ذلك لا يؤثر بشئ فى التزام الدولة الإسلامية العصرية بها قضاء من حيث هى واجب أو حق دستورى، وديانة من حيث هى راجعة فى أصل تقريرها إلى وضع دينى، وفى ذلك مزيد تحقيق لمصلحة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية، وزيادة ضمان لحقوقهم، فإن ما أوجبه الدين لن يستطيع حاكم مسلم أن يتحلل منه أو يجاهر بعدوان عليه أو إنكار له.

صور من عدالة المسلمين مع الأقباط

وقد أطلقوا حرية العبادة، ولم يضغطوا على أحد فى اعتناق الإسلام، وأنهم يجلون الرهبان والبطارقة والقساوسة، وعكس ما سبق هو ما يعانىة الشعب المصرى من والى الرومان الذى أرهقهم وأذاقهم صنوف

العذاب ألواناً، ليدفعهم لاعتناق ملة الإمبراطور ويتركون الأرثوذكسية المصرية، وأشاع فيهم العذاب والعسف والقتل وقضى تعذيبه لشقيق (باباهم بنيامين) أبشع ما يكون التعذيب وفي النهاية ألقاه فى البحر داخل جوال.

وهكذا استطاع المسلمون أن يغزوا قلوب (الأقباط) المصريين بشجاعتهم، وهمتهم، وفروسيّتهم من جهة، وبساطتهم، وورقتهم، وحسن معاملتهم، وقرب عاداتهم مما هم عليه من عادات، وطرق معيشتهم البسيطة من جهة أخرى، وكان المصريون يتساءلون: ألا تعجبون من هؤلاء القوم المسلمين يتغلبون على جنود الاحتلال الطغاة، وهم - أى المسلمون - قليلو العدد والقوة؟ فيجيب أحدهم: إن المسلمين يأتون محررين، فاستطاعوا أن يلمسوا قلوب المصريين، وكان يتردد فى كل مكان أن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه، أى إلا انتصروا عليه.

وما أن انتهى عمرو بن العاص من القضاء على الحاميات العسكرية لجيش الاحتلال البيزنطي، وتطهير القلاع والأبراج المنتشرة على أطراف الحدود المصرية والمواقع الاستراتيجية، وبعد تصفية الجيوش المنتشرة، وبعد أن انتهت مراسم توقيع معاهدة الإسكندرية وجلاء البيزنطيين عن الأراضى المصرية، وتأمين الحدود انتهى كل ذلك حتى بدأ عمرو بن العاص فى لقاءاته مع القيادات الشعبية المصرية. وخلال الأعوام الثلاثة الأولى التى أمضاها عمرو فى مصر فى أحداث وقلقل، وقتال وحروب، وهجوم ودفاع، فى مطاردة لفلول الهاربين من

بقايا جيش الاحتلال فى كل مكان. انتهى كل ذلك وعاش الجميع مسلمون
ومسيحيون فى أمن وسلام.

وفى هذا الصدد يحكى فى تراث الكنيسة القبطية أنه بعد أن حرر
عمرو بن العاص مصر من الروم جاءه حوالي سبعون ألفاً من الفارين
والهاربين من حكم الروم (البيزنطيين)، جاءوا وهم شبه عراة فى حالة من
البؤس يرثى لها، ممزقى الثياب، وطالبوا عمرو بحريتهم الدينية، فاستجاب
عمرو لهم، وفى نفس الوقت انزعج عمرو لما وصل إليه حال المصريين،
وأمر على الفور أن يرسل إلى جميع الأقاليم والكفور وكل الجهات، يدعو
فيها (البطريك) الهارب للعودة إلى مقره دون خوف مطلقاً، وأمنه على
نفسه وعلى مرافقيه من الرهبان والنساء، وبالفعل عاد (البطريك) على
حسن صنيعة، وأظهر له ولاءه، وتعانقا فى ود وحب، بعد سنين طويلة
من الظلم والعذاب، والقلاقل، وذرفت الدموع، وأعطاه عمرو الكنائس التى
اغتصبها الروم، وساعده فى إعادة بنائها وترميمها.

واطمأن البطريك على أن السلام سيعم البلاد ويظل يرفرف على
مصر والمصريين جميعاً، من أسلم ومن بقى على مسيحيته وسيكون هو
وأهله وعشيرته وأمواله وممتلكاته فى أمان واستقرار.

وهكذا استجاب عمرو بن العاص لطلبهم وأظهر ميله للأقباط
فازدادوا ثقة فيه وخصوصاً لما وجدوه رحيماً بهم، ويسمح لهم بإقامة
الكنائس وسط الفسطاط، وفى هذا الصدد يروى أن عمرو بن العاص
اشترى قطعة أرض فى مدينة الفسطاط من سيدة يهودية لإقامة مسجد
عليها وهو المسجد الذى أصبح مسجد عمرو بن العاص فيما بعد.

ومع استقرار الحكم فى مصر، والأمن والأمان الذى استمتع به
المصريون مع عمل عمرو بن العاص، وإعطاء حرية العقيدة للمصريين
وجه البطريك التفاته إلى الأديرة التى خربها الفرس أثناء حكمهم
واستعمارهم لمصر، واجتهد فى إصلاحها، فرمم وعمّر كل تخوم وادى
النظرون وبنى دير الأنبا بشيوى، وأعاد إليه رهبانه، ولما تجمّعا واشتد
عودهم، وأخذوا قسطهم من الراحة قصد بهم إلى دير أبى مقار فرمموه،
وبنوا الكنيسة الكبيرة.

وأيضاً قد ساعد عمرو بن العاص المصريين فى بناء الكنائس
وترميمها التى تهدمت إبان حكم الرومان.
وهكذا استمرت مسيرة السلام فى مصر بعد تحريرها وغردت
طيور السلام فى كل ربوع مصر.

واستمر الشعب المصرى (القبطى) بعد ذلك على مدى قرون
مسلمين ومسيحيين فى زورق واحد يبحر بهم فى غياهب التاريخ تتقاذفهم
أمواجه.

وفى مجال الاستقرار لدخول الإسلام فى مصر فقد قام عمرو ابن
العاص بإصلاح القناة التى تربط بين النيل والبحر الأحمر - والتى كانت
تسمى قناة (داريوس) الذى أدى إهمالها إلى عدم صلاحيتها للملاحة فقام
عمرو بتطهير القناة، وسميت بخليج أمير المؤمنين فعادت طريقاً صالحاً
للملاحة.

والإسلام جاء إلى مصر بروحه التى لا تفاضل بين الناس بسبب:
الحسب والنسب واللون والجنس والدين فمعيار التفاضل والتمييز هو
التقوى بمعنى السلوك القويم، لذلك اختلط المسلمون بالمصريين، واندمجوا

معهم وتزاوجوا بهم، وكان لفطرية الإسلام وبساطته أن أباح الزواج من النساء الكتابيات، والمصاهرة بين الشباب المسلم وبين الفتيات المصريات اللاتي فقدن عائلتهن إبان التعذيب والتقتيل الفارسي والبيزنطي، وأيضاً خلال المشاركة في الحياة الاجتماعية، فالإسلام أباح معاشرة ومصاحبة أهل الكتاب في ضوء الكتاب والسنة النبوية، وطعام المسلمين حل لهم، وطعامهم حل للمسلمين، وتم إسلام هاتيك الزوجات من فعل المعاشرة الطبيعية، وكان لهذا الاختلاط والمعايشة أثره البالغ في انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية، فضلاً على أثره في انتشار اللغة العربية.

كما حرص الإسلام، وحسبما ورد في الآيات القرآنية المتعددة والسنة النبوية، على الدعوة السلمية، والإقناع وعدم الإكراه في الدين والمجادلة بالحسنى، وعدم الالتجاء إلى الحرب إلا لضرورة الدفاع عن الإسلام، والديار الإسلامية، ولذلك بعث الرسول الكريم بكتب إلى حكام الدول المختلفة منها رسالة إلى المقوقس والى مصر من قبل الدولة (البيزنطية) يدعوهم إلى الإسلام.

دور المصريين في بناء الحضارة الإسلامية

فكان دخول الإسلام إلى مصر، والتحول من اللغة المصرية (القبطية) إلى اللغة العربية وهما من أصل لغوي واحد، بل وشارك الذين اعتنقوا الإسلام من مسيحيين ويهود في بناء الحضارة الإسلامية ديانة ولغة، وأيضاً حياة اجتماعية، وهو ما يناقض تماماً موقف المصريين من الحضارتين البيزنطية ومن قبلها الرومانية رغم ما أصاب المصريين من اضطهاد وتعذيب لإجبارهم على نقل الحضارة البيزنطية، وهذا المسلك من جانب المصريين يؤكد أن التحول إلى الإسلام واللغة العربية لم يتم

بالإكراه، إذ أن العلاقة بين كتائب تحرير مصر من الروم، والشعب المصري كانت علاقة كلها ود وإخاء ووفاء، وقد أعطى الإسلام المصريين حلولاً لكل مشاكلهم الحيوية اليومية، فأصبحوا يعيشون مطمئنين مستبشرين بحاضرهم متفائلين بمستقبلهم، إذ أصبح كل واحد منهم يأخذ حقه كاملاً غير منقوص كأحد أفراد المسلمين، ينعم هو وأسرته بجو من السعادة والرفاهية.

والمقتضى عقد الذمة تلتزم الدولة بتأمينهم، وحمايتهم في دار الإسلام والدفاع عنهم، الأمر الذي ترتب عليه معاملتهم معاملة حسنة، والتسوية بينهم وبين المسلمين في الحقوق والواجبات، إعمالاً للمبدأ العام الذي جاء ذكره من قبل، الذي أمر به الإسلام بالنسبة لأهل الذمة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" فتحسن وضع المصريين بالمقارنة لما كان عليه حالهم وقت الحكم البيزنطي، لدرجة أنهم لم يكتفوا بمعاونة المسلمين أثناء تحرير مصر؛ بل ساندوهم ضد الروم حينما حاول هؤلاء استعادة مصر وفتح الإسكندرية عام ٢٥ هجرية.

وذكرى من روح التسامح مع المصريين الأحاديث النبوية العديدة ومنها: "أن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً؛ فإن لهم منكم صهراً وذمة"، وجاءت "قبطها" في حديث الرسول تفيد أهل مصر المصريين، وتجلت روح التسامح هذه في المظاهر العديدة، منها حرية العقيدة، فقد تمتع مسيحيو مصر بحرية العقيدة خلافاً لما كان عليه حالهم في العصر البيزنطي، ومن قبل الاستعمار الفارسي، ومن قبل الاستعمار الروماني فبعد تحرير مصر والإسكندرية أعاد عمرو بن العاص البطريرك بنيامين إلى رئاسة الكنيسة الأرثوذكسية، والذي حضر إلى

مقابلة الوالى بعد أن أمّنه على حياته وحياة كل من فى عقيدته بعد هروب
استمر ثلاثة عشر عاماً قضاها فى البرارى والكهوف هرباً من ظلم
واضطهاد الروم، وبعد تعيين بطريك ملكانى بدلاً منه، وهكذا بدأ
البطريك الشرعى يمارس قيادته.

وقد تم ترميم ما تهدم من كنائس فى عهد الرومان، كما تم بناء
كنائس جديدة فقد بنيت كنيسة مار مرقس بالإسكندرية فيما بين عامى ٣٩
- ٥٠ هجرية، كما بنيت كنيسة بالقسطنطينية فى حارة الروم فى ولاية
(مسلمة بن مخلد) فيما بين عامى ٤٧ - ٦٨ هجرية، ومن ناحية أخرى
تجلت روح التسامح والود والعرفان بين المسلمين والمصريين، فقد انتصر
المسلمون للمصريين (الأرثوذكوس) على أعدائهم فى المذهب وهم
الملكانيون، وردوا إليهم الكنائس والأديرة التى كانوا قد استولوا عليها فى
عهد الروم. كما أن الخلفاء كانوا يتدخلون لنصرة المسيحيين إذ اشتكوا من
عسف ولاية مصر معهم، وهكذا يتجلى لنا مدى سماحة المسلمين مع
غيرهم من الأديان الأخرى وسائر الملل والنحل.

المراجع

١. الأقباط والإسلام، للدكتور محمد سليم العوا، دار الشروق، ١٩٨٧م.
٢. الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، للإمام محمد عبده، طبعة القاهرة، ١٩٥٤م.
٣. الترغيب والترهيب للمنذرى، مطبعة الحلبي، ١٩٣٣م.
٤. الحلال والحرام، للدكتور يوسف القرضاوى، مطبعة عيسى الحلبي، ١٩٥٦م.
٥. الديموقراطية الإسلامية، للدكتور عثمان خليل، ١٩٥٨م، المكتب الفنى للنشر.
٦. السيرة النبوية، لابن كثير، مطبعة عيسى الحلبي، ١٩٥٧م.
٧. العدالة الاجتماعية فى الإسلام، للأستاذ سيد قطب، دار الشروق، ١٩٥٨م.
٨. القيم الخلقية والإنسانية فى الغزوات، للأستاذ حسن فتح الباب، مطبعة الأزهر، ١٩٧١م.
٩. غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى، للدكتور يوسف القرضاوى، ١٩٧٧م.
١٠. من سماحة الإسلام فى النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى، ١٩٥٨م.
١١. محاضرات فى النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى، ١٩٥٨م.

حرية المعتقد الديني لغير المسلمين

فى ظل سماحة الإسلام

د. علي عبد العال الشناوى (*)

تمهيد :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله - الرحمة المهداة والأمين الداعى إلى الله، والنور الهادى إلى الحق، وإلى صراط الله المستقيم، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله، وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد

فإن الذى دفعنى إلى الكتابة فى هذا البحث المتواضع عدة أسباب

أهمها :

أ- شعورى بالمسئولية أمام الله عز وجل، وأمام تعاليم ديننا الإسلامى الحنيف الذى يجعل ثواب العلم النافع ممتداً حتى بعد أن يموت الإنسان، ويفنى جسده لأن الإسلام بالنسبة لى كعامل فى حقل الدعوة الإسلامية هو المربى والمعلم والنبراس، والمبدأ والنهاية.

ب- شعورى بأن دعوة غير المسلمين إلى الإسلام أمر واجب، شريطة أن تكون هذه الدعوة قائمة على الحكمة والموعظة

(*) الأستاذ المساعد بقسم الأديان والمذاهب.

الحسنة والجدال بالتي هي أحسن؛ بالإضافة إلى تطبيق مبدأ التسامح معهم في كافة جميع الحقوق كحق العقيدة الذي نحن بصدده الحديث عنه، ومثل حق الحياة، وحق الأمن، وحق التعليم والتعلم، وحق العمل، وحق التملك، وحق حرمة العرض، وحق الحوار .. الخ.

ج- تصحيح بعض المفاهيم الممزوجة بالأخطاء عند كثير من الناس - والتي تدعو إلى بث الكراهية لغير المسلمين، وخاصة في الجانب العقدي أو الديني .. مما يؤدي إلى إيجاد الفجوة - أو توسيع الخرق على الرّاقع إن صح التعبير.

د- تشجيع بعض المسؤولين - في رابطة الجامعات الإسلامية - بجامعة الأزهر الشريف - لى فى المشاركة العلمية من أجل نشر الوعي القومى، وإبراز جوانب السّماحة فى تعاليم الإسلام.

لهذه الأسباب مجتمعة اخترت أن يكون موضوع بحثى هو " حرية المعتقد الدينى لغير المسلمين فى ظل سماحة الإسلام "، وقد عالجت فيه النقاط الآتية: (الإخوة الإنسانية، وبيان من هم غير المسلمين؟ وأسس العلاقات بين المسلمين وغيرهم، ودستور العلاقة مع غير المسلمين، وحرية المعتقد فى ظل سماحة الإسلام لغير المسلمين" ... وأخيراً أسأل الله عز وجل أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهة الكريم.

الأخوة الإنسانية :

جعل الدين الإسلامى غير المسلمين شركاء مع المسلمين فى الوطن منذ كانت للإسلام دولة .. دولته الأولى فى المدينة المنورة ، ودوله التى توالى أيامها بعد انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وحتى يومنا هذا.

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى فى الاجتماع البشرى أن يتجاور فيه جماعات من الناس مختلفين فى الألسنة والألوان قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

فالبشر جميعاً إخوة لأب واحد وأم واحدة، وإن تباعد بمعانى هذه الإخوة الإنسانية طول الأمد بين الأصول والفروع^(١).

وبالرجوع إلى كتاب الله عز وجل نلاحظ أنه قرر هذه الحقيقة فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولما كان يوم فتح مكة أمر النبى ﷺ "بلالاً" - رضى الله عنه - أن يعلو على ظهر الكعبة، ويؤذن فى الناس، فصعد بلال على ظهر الكعبة وأذن فساء ذلك بعض سادة قريش فنكلموا، وكان ممن تكلم "عتاب بن أسد" قال: "الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام أما وجد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟ وقال

(١) د. محمد سليم الغواط: كتاب الأقباط والإسلام، نشر دار الشروق بالقاهرة ط عام ١٩٨٧ بتصرف.

سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيره، وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء، فأتى جبريل النبي ﷺ وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا، فأنزل الله قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد زجرهم النبي ﷺ عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء، وفيها يؤكد للناس أنهم جميعاً عند الله سواء لا فرق بين أبيض وأسود، ولا فرق بين عربي وعجمي، ولا فرق بين سامي وآري وحامي. فكلهم من أب واحد وأم واحدة، ثم تناسلوا وتكاثروا فصاروا على الأجيال أمما كبيرة، والأمم الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة، ليعرف بعض الناس بعضاً، ويأنس بعضهم إلى بعض، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، فلا تفاخر بالأحساب والأنساب، وكثرة الأموال .. وفي يوم القيامة يقول الله تعالى لعباده: "إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم"^(١).

فالخطاب الذي ورد في آية سورة الحجرات "يا أيها الناس" خطاب للناس جميعاً يشمل المؤمنين، وغير المؤمنين لأنهم إخوة في الإنسانية، ويرجعون في أصلهم لآدم وادم من تراب، وتوزيع الناس إلى شعوب وقبائل ليس أمراً ذاتياً تتغير به حقيقة الإنسانية في الناس، إنهم مهما اختلفوا شعوباً وأوطاناً فإنهم "إخوة قرابة ونسباً".

(١) راجع محمد أحمد برانق وآخرين: تفسير القرآن الكريم الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة: ج ٢٦، ص ٩٧ - ٩٨.

ولقد أكد النبي ﷺ هذه الأخوة الإنسانية في خطبة الوداع حيث قال: يا أيها الناس إن ربكم واحد ، وأن أباكم واحد كلكم لآدم و آدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى. ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد. فليبلغ الشاهد منكم الغائب" (١).

ومما يؤكد حرص الإسلام على مبدأ "الأخوة الإنسانية بين البشر جميعاً" تمتع غير المسلمين بحقوقهم وحريرتهم في ظل الإسلام، حتى إننا لنجد في السنة النبوية المطهرة النهى عن إيذاء أهل الكتاب، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: "من آذى ذمياً فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله".
ومنه قوله ﷺ: "من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه، خصمته يوم القيامة" (٢).

وفي عصر الفاروق "عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - شكاً إليه أحد أقباط مصر من أن ابن والى مصر (عمرو بن العاص) قد لطم ابنه لما غلبه في سباق وقال له أتسبق ابن الأكرمين، فما كان من عمر إلا أن أمر بحضور والى مصر وابنه إلى مكة في موسم الحج وفي جمع كبير بين الناس أعطى الفاروق "عمر بن الخطاب رضي الله عنه" الدرّة للقبطى وأمره أن يقتص من ابن الأكرمين، ثم اتجه إلى "عمرو بن العاص" رضي الله عنه وقال له تلك الكلمة المأثورة: "يا عمرو متى تعبدتم - أى استعبدتم - الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً" (٣).

(١) راجع الشيخ محمد الخضرى: نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين، نشر مكتبة الإيمان بالمنصورة، طبعة تمام ١٤١٥هـ/١٩٩٤م: ص ٢٢٢ .

(٢) الحديث ورد فى الجامع الصغير للسيوطى، ط. دار الفكر بالقاهرة، ج ٢، ص ٥٤٧ .

(٣) راجع: سماحة الإسلام وحقوق غيرا لمسلمين، لنخبة من كبار المفكرين وعلماء المسلمين، إصدار وزارة الأوقاف المصرية، طبعة عام ١٩٩١م، بالقاهرة ص ٢٤ .

حقاً إن رعاية الإسلام لغير المسلمين من أهل الكتاب هي التي جعلت الخليفة عمر لم يفرق في كفالة الدولة لبنينها بين مسلم وغير مسلم.. فقد حدث أن مرَّ بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر فسأله عمر - رضى الله عنه - من أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودى فسأله: ما ألك إلى ما أرى قال: "الجزية، والحالة، والسن" فأخذ أمير المؤمنين بيده إلى منزله وأعطاه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم.

كذلك جاء في كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة: "جعلت لهم - أى لأهل الذمة - أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت حرбите، وعيّل من بيت مال المسلمين وعيالة، ما أقام بدار الهجرة"^(١).

وفي ساحة القضاء، لا يعطى الإسلام أى اعتبار لغير الأخوة الإنسانية والمساواة فيها، والواقع العملى أكبر دليل على ذلك. وقد ثبت أن الفاروق - رضى الله عنه - كتب كتاباً إلى قاضى القضاة أبى موسى الأشعري قال له فيه: "آس - أى ساو - بين الناس فى وجهك ومجلسك وقضائك حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا يبأس ضعيف من عدلك.

وهكذا: يطلب عمر من القاضى أن لا يفرق بين المتخاصمين حتى فى نظره أو مجلسه، ولو كان من أهل الكتاب.. وفى الأثر أن يهودياً خاصم علياً بن أبى طالب - رضى الله عنه - ابن عم الرسول ﷺ وصهره إلى أمير المؤمنين عمر فنادى أمير المؤمنين علياً بقوله:

(١) راجع: د/ محمد سليم العوا: الأقباط والإسلام، ص ٣٨ - ٣٩ بتصرف.

قف يا أبا الحسن، فبدأ الغضب على على رضى الله عنه، فقال له عمرو أكرهت أن نسوى بينك وبين خصمك فى مجلس القضاء، فقال على: لا ولكنى كرهت منك أن عظمتنى فى الخطاب فناديتنى بكنيتى ولم تصنع مع خصمى اليهودى ما صنعت بى^(١).

من هم غير المسلمين ؟ للإجابة على هذا السؤال - أقول وبالله التوفيق : "إن غير المسلمين أصناف كثيرة، يجمعهم جامع واحد، وهو عدم الدخول فى الإسلام، وإن كان لكل صنف منهم اسم خاص به .. وقد جمعت الآية القرآنية الكريمة فى سورة الحج أسماء غالبيتهم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج:١٧].

وقد ذكر القرآن الكريم أيضاً صنفاً آخر يسمى بالدهرية .. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤].

وهذا تعريف موجز لكل صنف منهم:

أولاً : الصائبة: وهم الذين يعتقدون فى الكواكب، ويؤمنون بتأثير السيارات على الكون.

(١) المصدر السابق : ص ٤١ باختصار.

ثانياً: المجوس: وهم عبدة النيران القائلون بأن للعالم إلهين اثنين مديرين قديمين يقسمان الخير والشر، والنفع والضرر، والفساد والإصلاح، ويسمون أحدهما النور، والثاني الظلمة.

ثالثاً: المشركون: وهم الذين يقرون بربوبية الله تعالى، ولكنهم يشركون معه غيره في العبادة كعبده الأوثان من العرب، وعبدة الشمس، وعبدة الملائكة.

رابعاً : الدهرية : وهم الذين لا يعترفون بوجود مؤثر في العالم فينكرون الإله الخالق، ويقولون أنه لا إله ولا صانع، وإنما وجدت هذه الأشياء دون خالق لها، وسموا بالدهرية لقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وهم الملحدون في عصرنا هذا.

خامساً : أهل الكتاب : وللفقهاء في تعريفهم دأبان .. الرأي الأول: رأى فقهاء الحنفية وعندهم: الكتابي: هو كل من اعتقد ديناً سماوياً وله كتاب منزل كالتوراة والإنجيل، وصحف إبراهيم وشيث، وزبور داود، فلا يقتصر مسمى أهل الكتاب على اليهود والنصارى فقط بل يشمل غيرهم من أصحاب الكتب السماوية المنزلة.

الرأى الثانى : رأى فقهاء الشافعية والحنابلة: أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى دون غيرهم، فليس أصحاب صحف إبراهيم وشيث، وزبور داود عليهم السلام أهل كتاب، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٦] ، والآية تدل على أن الطائفتين هما اليهود والنصارى دون غيرهم.

والراجح هو الرأى الثانى، وذلك لدلالة الآية الكريمة عليه ..
ومن هنا يمكن القول بأن أهل الكتاب هم "اليهود الذين يتبعون التوراة،
والنصارى الذين يتبعون الإنجيل.

وقد سماهم الفقهاء باسم "أهل الذمة" وكلاهما تسميتان رقيقتان
الأولى منهما عامة لكل اليهود والنصارى سواء أكانوا داخل حدود
الدولة الإسلامية أم خارجها .. وأما الثانية فهى تختص باليهود
والنصارى داخل حدود الدولة الإسلامية فقط.

وأهل الذمة معناها : أهل العهد والضمان، والأمان، والحرمة.
وفى اصطلاح الفقهاء: أهل الذمة هم المعاهدون من اليهود
والنصارى ومن فى حكمهم ممن يقيم فى دولة المسلمين ، وسموا بذلك
لأن لهم عهد الله وعهد رسول الله ﷺ، وعهد جماعة المسلمين ، على
أن يعيشوا فى حماية الإسلام ، وتحت راية المجتمع الإسلامى آمنين
مطمئنين. وهذه الذمة تشبه حالياً ما يسمى فى العرف البشرى والسياسى
باسم (الجنسية) التى تعطىها الدولة لرعاياها، وقد سماهم البعض (حاملى
الجنسيات الإسلامية)^(١).

(١) راجع المصادر الآتية :

بسام داود عجك، الحوار الإسلامى المسيحى/ ط الأولى عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م نشر
دار قتيبية، ص ٣٥ - ٣٧، والشهر ستانى: الملل والبخل ، ج ٢ ، ص ٧١ ، والقرطبي:
الجامع لأحكام القرآن الكريم: ج ١٢: ص ٢٢، ٢٣، وابن الاثير الكامل فى التاريخ: ط:
ص ٢، وأحمد بن على الجصاص: أحكام القرآن ج ٢: ص ٣٢٧، وجمال الدين بن
منظور: لسان العجب: ج ٥: ص ٥٩ ، وعبد الكريم زيدان: أحكام الذميين والمستأمنين فى
دار الإسلام ط الأولى عام ١٩٦٣م ، مطبعة البرهان، جامعة بغداد ، العراق، ص ٦٣ .

أسس العلاقات بين المسلمين وغيرهم :

كانت سماحة الإسلام مع أتباع الديانات الأخرى ، تمثل أسس العلاقات فى التعامل مع غير المسلمين، فى بلاد الإسلام .. فسماحة الإسلام، وبراءته من التعصب وإجبار الناس على اعتناقه أمر واضح، ولقد كفل الإسلام للناس حرية العقيدة قبل أى قانون، وقبل الثورة الفرنسية بقرون كثيرة.

ومن هنا كان لزاماً علينا - بل ومن الضرورى - بيان أسس

العلاقات بين المسلمين وغيرهم . وهى كالتى:

(١) صحيفة المدينة المنورة: كانت صحيفة (المدينة المنورة)

أول توجيه يصدره النبى ﷺ بعد الهجرة لأهل المدينة، وضح فيها دعائم الأخوة التى تقوم بينهم فى مجتمعهم الجديد، وإنهم أمة واحدة أقر فيه اليهود على دينهم وأموالهم، وعاهدهم على الحماية والنصرة ما أخلصوا للدولة الجديدة، فقد كتب النبى ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادّع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم وامترط عليهم.

وهذه الصحيفة بينت دعائم المجتمع الجديد، وأقر فيها النبى ﷺ اليهود على دينهم وأموالهم وعاهدهم على الحماية والنصرة، وقد تضمنت المبادئ الآتية:

أ- وحدة الأمة من غير تفريق بين أبنائها، وتساوى أبناء الأمة جميعاً فى الحقوق والكرامة يجبر أديانهم على أعلاهم.

ب- تكاتف الأمة كلها دون الظلم والإثم ، والعدوان والفساد كائناً من كان الظالم والمفسد.

ج- اشتراك الأمة في تقرير العلاقات مع أعدائها لا يسالم مؤمن دون مؤمن؛ بالإضافة إلى تأسيس المجتمع على أحسن النظم وأهداها وأقومها.

د- مكافحة الخارجين على الدولة ونظامها العام، ووجوب الامتناع عن نصرتهم وحماية من أراد العيش مع المسلمين سالماً متعاوناً ، والامتناع عن ظلمهم والنعي عليهم.

هـ- لغير المسلمين الحرية في ممارسة طقوس وشعائر دينهم، والمحافظة على أموالهم ولا يجبرون على دين المسلمين، ولا تؤخذ منهم أموالهم.

و- على غير المسلمين أن يسهموا في نفقات الدولة كما يسهم المسلمون، وإن يتعاونوا معهم لدرء الخطر على كيان الدولة ضد كل عدوان، وعليهم أن يشتركوا في نفقات القتال ما داموا محاربيين.

ز- على الدولة أن تنصر من يظلم منهم، كما تنصر كل مسلم يعتدى عليه.

ح- على المسلمين وغيرهم أن يمتنعوا عن حماية أعداء الدولة ومن يناصرهم، وإذا كانت مصلحة الأمة في الصلح، وجب على جميع أبنائها - مسلمين وغير مسلمين - أن يقبلوا الصلح، ولا يؤخذ إنسان بذنب غيره، ولا يجنى جان إلا على نفسه.

ط- حرية الانتقال في داخل الدولة، وإلى خارجها مصونة بحماية الدولة، ولا حماية لأثم ولا ظالم.

ي- المجتمع يقوم على أساس التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢] (١).

(٢) كتاب الرسول ﷺ لأهل نجران: بالرجوع إلى الوراثة وإلى صدر الدعوة الإسلامية - نلاحظ أن رسول الله ﷺ صالح أهل نجران على شروط اشترطها لأنفسهم وكتب لهم بذلك هذا الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

" هذا ما كتب محمد النبي رسول الله ﷺ لأهل نجران إذا كان له حكمه عليهم إن في كل سوداء وبيضاء وحمراء وصفراء، وثمره ورقيق وأفضل عليهم، وترك ذلك لهم: ألفى حلة، وفي كل رجب ألف حلة، كل حلة أوقية ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأوقى فليحسب، وما قضاوا من ركاب أو خيل أو وروع أخذ منهم بحساب .. وعلى أهل نجران مقرى رسلى (أى ضيافتهم) عشرين ليلة فما دونها، وعليهم عارية ثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً وثلاثين ورعاً إذا كان كيداً باليمن ذو مغدرة (أى غدر) .. وما هلك مما أعاروا رسلى فهو ضامن على رسلى حتى يؤدوه إليهم .. ولنجران وحاشيتها نمة الله، وذمة رسوله ﷺ على دمانهم وأموالهم وملتهم، وبيعهم، ورهباً نيتهم وأساقفهم وشاهدتهم وغائبهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وعلى أن لا يغيروا أسقفاً من سقيفاه، ولا واقهاً من وقبهاه (أى القائم على البيت الذى فيه

(١) راجع: مصطفى السباعي: كتاب اشتراكية الإسلام ، ط دار الشعب بالقاهرة ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢م ، ص ٣١٢ ، ٣١٤ ، بتصرف، وسماحة الإسلام وحقوق غير المسلمين، مصدر سابق، إصدار وزارة الأوقاف المصرية: ص ٢٩ - ٣١ .

صليب النصارى) .. ولا راهباً من رهبانيته، وعلى أن لا يحشروا ولا يعشروا (أى تؤخذ منهم العشور) .. ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فالنصف بينهم بنجران على أن لا يأكلوا الربا من ذى قبل، فذمتى منه بريئة وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين، ولا معنوف عليهم، شهد بذلك "عثمان بن عفان، ومُعَيْب، وكتب" أ.هـ (١).

(٣) كتاب أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - أيضاً لأهل نجران: مما تجدر الإشارة إليه هنا: أن الخلفاء الراشدين والحكام من المسلمين حذوا رسول الله ﷺ فى معاملة غير المسلمين فقد جاء بعد وفد نجران إلى أبى بكر رضى الله عنه فكتب لهم: "بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما كتب به عبد الله أبو بكر خليفة محمد ﷺ لأهل نجران أجازهم بجوار الله وزمة محمد ﷺ على أنفسهم وأرضيهم وملتهم ورهبانيتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يخسرون ولا يعسرون، ولا يغير أسقف من أسقفته ولا راهب من رهبانيته، وفاءً لهم بكل ما كتب لهم محمد النبي ﷺ وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله، وزمة محمد النبي ﷺ أبداً وعليهم النصح والإصلاح فيما عليهم من الحق" (٢).

(١) راجع: الحافظ بن سلام: كتاب "الأموال" ط عام ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، نشر مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة: ص ١٨٢ .

(٢) راجع: الحافظ يعقوب بن إبراهيم كتاب الخراج: الطبعة السلفية السادسة عام ١٣٩٧ هـ : ص ٧٩ .

(٤) كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه لغير المسلمين فى بيت المقدس: كان من شأن الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع من صالحوه وعاهدوه أن يفى بعهده ويخلص فى الوفاء به إخلاص من يطالب نفسه به قبل أن يطالبوه، ومن يراقب نفسه فيه قبل أن يراقبوه يتجلى ذلك واضحاً فى الأمان والعهد والذى أعطاه لغير المسلمين فى بيت المقدس.

حيث كتب للنصارى فى بيت المقدس أماناً على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسه لا تهدم ولا تسكن، وحين جاء وقت الصلاة وهو جالس فى صحن كنيسة القيامة خرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده وقال للبطرک: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى وقالوا: هنا صلى عمر، ثم كتب كتاباً بوصى به المسلمين ألا يصلى أحد منهم على الدرجة إلا واحداً غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذنين عليها.

أما عهده لهم فقد كان مثلاً فى السماحة والمروءة لا يطمع فيه طامع من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنة ما كانت فكتب لهم العهد الذى قال فيه "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين - أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها، وسائر ملتها، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وإن يخرجوا منها الروم واللصوت (أى اللصوص) فمن خرج

منهم كأنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا أمانهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء منن الجزية.

ومن أحبب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروح، ويخلى بيعهم وصلبهم - (جمع صلب) - فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مآمنهم وليس لذي عهد من ظافر أن يطمع في أمان أكرم من هذا الأمان.

وإنه كان يعطيهم عليه وعلى قومه هذه العهود ثم لا يقنع بها حتى يشفعها بالوصاية للولادة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة، وأن يوفى لهم بعهدهم وينصح عنهم (أى يدافع عنهم) ولا يكلفوا فوق طاقتهم^(١).

بهذه المبادئ السامية، وبهذه القيم الإسلامية النبيلة السمحة أقام الإسلام دولة، وكون أمة لا تعرف - على اختلاف طوائفها وأديانها - الحقد ولا البغى، ولا القسوة والظلم، ولا يحركها، أو يقيمها، أو يقعدا سوى البر والرحمة، والتعاطف، وروح الإنسانية العامة .. الأمر الذى غدا فى ضمير خلفاء الأمة وحكامها وشعوبها، وحياتها ترجمة عملية وواقعاً حياً للحديث النبوى الشريف الذى يوثق فيه النبى ﷺ العروة بين الإيمان الحق، والعلاقات الإنسانية الصادقة حيث يقول: "لن تؤمنوا حتى تراحموا"، قالوا يا رسول الله كلنا رحيم قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة" رواه الطبرانى ورواه رواية الصحيح.

(١) راجع: أ/ عيسى محمود العقاد: كتاب "عبقرية عمر"، ط الجهاز المركزى للكتب الجامعية بالقاهرة، عام ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ١١٩، ١٢٠.

دستور العلاقات مع غير المسلمين :

وضع القرآن الكريم قاعدة تعد الدستور الأساسى فى معاملة المسلمين لغيرهم من الناس وذلك فى قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فالآية واضحة تماماً فى تحديد كيفية العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين والعلاقة ترتقى على أمر أعظم من العدل .. الذى هو إعطاء كل ذى حق حقه - وإنما ترتقى هذه العلاقة إلى مرحلة الإحسان - وهو الزيادة على الحق وقد قدمت الآية لفظ البر الذى يعنى فعل الخير من أى ضرب كان على لفظ القسط الذى يعنى العدل، وهذه إشارة رائعة من الآية الكريمة إلى كيفية معاملة غير المسلمين فى حالة السلم، إنها علاقة قائمة على البر والإحسان وهو أمر فوق العدل، وفوق إعطاء الحقوق^(١).

ولقد حفل القرآن الكريم بدعوة المسلمين إلى التسامح ، وأمرهم بالرفق والحنى فى الدعوة إليه فأمر مناقشة المخالفين بالحسنى قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

(١) راجع: لسان العرب لابن منظور، ط ١، ص ٣٧٢، ص ١٥٩.

كما أوضح الله سبحانه وتعالى للنبي ﷺ أنه مكلف أن يبلغ الدعوة ويبشر بالإسلام، وليس مكلفاً أن يحمل الناس عليها بالقوة، وأمره أن يجبر المشرك إذا لجأ إليه واحتذى به قال تعالى: ﴿فَذَكَرْنَا أَنْتَ مُذَكَّرًا * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾ [الإسراء: ٥٤]، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وكما سبق أمر الله للنبي ﷺ أن يجبر المشرك إذا لجأ إليه واحتذى به وهذه سماحته ما يعلوها سماحة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

وأمر الله المسلمين بأن يفوا بعهودهم لمن عاهدوهم سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من المشركين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ وَلَا يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ إِلَّا مَنْ يَتَّخِذُ الْبُرْجَانَ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٤]. فهذا الدستور طبقه النبي ﷺ وخلفاؤه، وقواد المسلمين تطبيقاً عملياً لما عقدوا المصالحة مع أصحاب البلاد المفتوحة، وإذا كان من شأن

المنتصر أن يستبد ويملى شروطه بدافع الغيظ والانتقام والغرور بالقوة .. لكن المسلمين كانوا في معاهدتهم مع المغلوبين كراماً، فأفروهم على عقائدهم وشعائهم الدينية وأوصوا برعايتهم، والمحافظة على أموالهم والدليل على ذلك كالاتى:

عقد النبي ﷺ مع قبيلة تغلب سنة ٩هـ، وكان الإسلام قد قوى ودانت به العرب - أباح لهم فيها البقاء على نصرانيتهم وصالح نصارى نجران وتركهم أحراراً فى دينهم ووجه أعماله إلى اليمن لأخذ الجزية ممن أقام على نصرانيتها، وكذلك فعل مع النصارى واليهود جميعاً فى بلاد العرب.

وكان المجوس مسبيين فى بقاع شتى من جزيرة العرب، منهم مجوس نجران وهجر، وعمان، والبحرين وهؤلاء بقوا جميعاً على دينهم.. ودفعوا الجزية.

ولما فتح النبي ﷺ مكة، قال لقريش: "ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟" قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لى ولكم"^(١).

حرية المعتقد ، وممارسة الشعائر، وصون أماكن العبادة فى ظل سماحة الإسلام لغير المسلمين:

للإنسان فى منظور الإسلام كل الحق فى أن يعتنق الدين أو المذهب أو المبدأ الذى يشاء، وله كل الحرية فى أن يمارس شعائر دينه ما يراه علانية أو خفاءً كما أن له الحق أيضاً فى أن لا يعتنق على

(١) راجع: كتب السيرة النبوية، وفتوح البلدان للبلاذرى، والكامل للمبرد ج١، ص٢١٣، ومستند الإمام أحمد بن حنبل ج١، ص٢٤٧، وتاريخ الطبرى، ج٤، ص١٦٧.

الإطلاق أى دين طالما أن ذلك كله لا يضر بالآخرين .. ومن هنا فإن حرية الإنسان تنتهى عند بداية حقوق غيره.

وتقتضى حرية العقيدة حق الإنسان فيها وهو ألا يفرض على أى إنسان اعتناق دين معين، ولا أن يقهر عليه من أى سلطة كانت، حتى ولو كان هذا الدين هو الدين الرسمى للدولة، ولا أن يكره على مباشرة شعائر دين ما أو يشترك فى طقوسه ومناسكه .. واتصال العقيدة بحرية الإنسان ينبع من كون العقيدة هى ما ينعقد عليه قلبه وضميره ومن ثم فإن أساس تكوينها لدى الإنسان هو عقله وفكره، وقلبه ورغبته بالدرجة الأولى .. هذا ويتفرع على مبدأ الحرية فى اعتناق العقيدة إطلاق حرية الإنسان فى ممارسة شعائر دينه خفاءً أو علانية^(١).

ومن ثم نعلم أن العقيدة الصحيحة لا تتأسس إلا على الحرية والاختبار، ولهذا لا يعتد بإيمان المكره ، ولا يكفر أنه .. ولقد كان النبى ﷺ حريصاً كل الحرص على هداية الخلق إلى الحق رحمة بهم وانطلاقاً من أنه ﷺ رحمة للعالمين.

فالحرية الدينية كفلها الإسلام لأهل الكتاب .. فهم أحرار فى عقيدتهم ، وعبادتهم وإقامة شعائرهم فى كنائسهم ، ولهم أن يُجَدِّدُوا ما تهدم منها، وأن يبنوا جديداً ، ولهم الحق فى دق نواقيسهم إيذاناً بصلاتهم، ولهم إخراج صلبانهم فى يوم عيدهم.

ولم يحدث فى زمن الفتح الإسلامى أن هدم المسلمون كنائس أهل الكتاب أو حملهم على الإسلام، أو اضطهدوهم اضطهاداً دينياً أو

(١) راجع: د/ عاصم أحمد عجيلة: كتاب: الحرية الفكرية وترشيد العقل فى الإسلام، ط الأولى، عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤، القاهرة ص١٨، ١٩ .

سياً يقتصرهم على أن يعتقوا الإسلام وسيلة للنجاة .. ففي العهود السابقة أعطى عمر وغيره لأهل الكتاب الأمان على كنائسهم وصلبهم.. وفي المعاهدات مع فارس نص على حرية أهلها في شعائرهم الدينية، وفي مصر أعطى عمرو بن العاص أهلها الأمان على كنائسهم وصلبانهم^(١).

ويذكر المؤرخون أن المسلمين في مصر وافقوا على ألا يحتلوا كنيسة وعلى ألا يتدخلوا في شئون الأقباط بأية صورة من الصور .. ويذكر أن عمر بن العاص رضى الله عنه، جبي الضرائب المفروضة، لكنه لم يمد يده قط إلى شئ من أملاك الكنائس، ولم يأت بعمل من أعمال النهب والتدمير بل لقد حافظ على الكنائس إلى آخر أيامه^(٢).

وفي أنحاء الإمبراطورية الإسلامية كانت الكنائس تبنى بحرية، وكانت تُشيد بموافقة الحكام، وأحياناً بمساعدتهم .. وقد ذكر السير توماس آرنولد: "أن بعض الخلفاء أمروا ببناء كنائس في الشام، والعراق، وشمالى الجزيرة، ومصر، وأنفقوا عليها .. ومازال بعضها قائماً إلى اليوم مثل (كنيسة أبو سرجة) التى بُنيت فى القسطنطينية فى العهد الإسلامى الأول، وقد بنى خالد القسرى - والى بنى أمية فى العراق وفارس - لأمة المسيحية كنيسة لتتعبد فيها - فى العهد الأول للدعوة الإسلامية، أيام أن كانت الحرب على أشدها بين المسلمين والروم المسيحيين^(٣).

(١) راجع: تاريخ الطبرى: ج٤، ص ٣٣٩ .

(٢) راجع: تريتون: كتاب أهل الذمة فى الإسلام، ترجمة: د/ حسن حبشى، القاهرة، ص ٤١.

(٣) راجع: د/ إبراهيم سليمان عيسى: كتاب "معاملة المسلمين فى دولة الإسلام" ط الأولى عام ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، نشر دار المنار بالقاهرة، ص ٩٥ .

ومن خلال ما سبق: نفهم جيداً أن الإسلام أقر بوضوح تام حرية الاعتقاد لكل الناس فلا إكراه لأحد على اعتناق الإسلام، وإن كان يدعوهم إليه، ويرغبهم فيه، والدعوة إلى دخول الإسلام، والإكراه عليه أمران متضادان تماماً، فالأول جائز مشروع، والثاني حرام ممنوع. ومن القواعد الأساسية في معاملة غير المسلمين ضمن هذا الإطار قاعدة (نتركهم وما يدينون) وهي للإمام على بن أبي طالب رضى الله عنه^(١).

وقد أثبتت الشواهد التاريخية صحة هذه المقولة وهي كثيرة جداً - منها عهد النبي ﷺ إلى يهود المدينة الذي جاء فيه (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليتهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم)، ورسالته ﷺ إلى معاذ بن جبل رضى الله عنه فى اليمن والتي جاء فيها "ولا يفتتن يهودى عن يهوديته"^(٢).

وأيضاً عهد النبي ﷺ إلى أهل نجران جاء فيه (.. ولا يغير أسقف من أسقفيتيه، ولا راهب عن رهبانيتيه، ولا كاهن من كهانته وليس عليه دنيّة)^(٣).

(١) راجع: أحمد ابن قنبر قاضى زادة: كتاب: "تكملة فتح القدير"، ط عام ١٩٧٠م (الطبعة الأولى)، القاهرة ج ٧، ص ٣٩٨.

(٢) راجع: ابن هشام السيرة النبوية، نشر دار بن كثير، دمشق سوريا: ج ١، ص ٥٠٣، وأبو يوسف يعقوب من إبراهيم القاضى: كتب الخراج، الطبعة الخامسة عام ١٣٩٦هـ، نشر المطبعة السلفية بالقاهرة، ص ٧٢.

(٣) الخراج لأبى يوسف، ص ٧٨.

وقد حفظ رجال الدين من سطوة الحرب ، فقد جاء في الحديث الشريف النهى عن قتل أصحاب الصوامع (أى رجال الدين والرهبان والعباد) تطبيقاً لمبدأ عدم الإكراه فى الدين حيث قال ﷺ: "لا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع"^(١).

وفى خطبة أبى بكر الصديق رضى الله عنه بجيشه التى وجهها لتحرير العراق والشام جاء قوله: "وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له"^(٢).

ولعل من أروع الأمثلة على هذا التسامح الرفيع رغم أنه لم يكن هناك عقد أو معاهدة هو سماح النبى ﷺ لوفد نصارى نجران المؤلف من حوالى ستين شخصاً، بدخول مسجده الشريف، وجلسهم فيه فترة طويلة، وعندما حان وقت صلاتهم قاموا متوجهين إلى المشرق ليصلوا صلاتهم فقام المسلمون لمنعهم عن ذلك، إلا أن الرسول ﷺ نهاهم عن ذلك وتركهم يصلون فى طمأنينة^(٣).

وجاء فى عهد خالد بن الوليد رضى الله عنه إلى سكان (عانات بفلسطين) ما نصه: "على أن يضربوا نواقيسهم فى أى ساعة شاءوا من

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى، الطبعة الثانية عام ١٩٧٨م، بيروت ، لبنان، ج ١ ، ص ٣٠٠.

(٢) راجع: محمد بن جرير الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، الطبعة الثانية عام ١٩٨٨م، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ج ٢، ص ٢٤٦ .

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٥٧٤ .

ليل أو نهار إلا فى أوقات الصلوات، وعلى أن يخرجوا الصلبان فى أيام عيدهم»^(١).

وإن من أعظم الشواهد الواقعية على حرية المعتقد فى الإسلام هو ما يرى الآن من أماكن العبادة - الكنائس والمعابد والأديرة - منتشرة فى كل مكان من بقاع العالم الإسلامى، وهى شواهد عيان تنطق بحرية التعبد التى جاء بها الإسلام، فلو أن المسلمين كانوا لغيرهم من أتباع الملل والنحل، لما شوهد برج كنيسة واحد، ولما سمع صوت ناقوس.

بل أن القرآن الكريم جعل حماية المعابد، وأماكن العبادة أحد الأسباب التى أبيض لأجلها الجهاد فى الإسلام، وذلك فى قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

فالآية الكريمة تدل على أنه لولا ما شرع الله تعالى للأتبياء وللمؤمنين من جهاد الأعداء لاستولى أهل الشرك والكفر على أماكن العبادة، ولتعطلت عبادة الله تعالى فى تلك الأماكن، ولكنه أوجب القتال ليتفرغ أهل الأديان للعبادة.

فالمسلم يبذل دمه وروحه، وكل ما يملك لأجل حماية الدين من أهل الملل المختلفة واستمرار بقاء معابدهم، ولذلك يقول ابن قيم

(١) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص ١٥٨.

الجوزية: "وإن الله عز وجل يدفع عن متعباتهم التي أقروا عليها شرعاً وقدراً ، فهو يُحبّ الدفع عنها وإن كان يبغضها ، كما يُحبّ الدفع عن أديانها وإن كان يبغضهم" (١) .

وقد سئل الأستاذ الدكتور: يوسف القرضاوى عن معاملة الذميين فى دولة الإسلام وكيف فهمها السلف من الصحابة والتابعين، وكيف سارت عليها الأمة حتى اليهود فأجاب فضيلته فقال: "نظرة الإسلام لاتباع الديانات الأخرى تتلخص فى كلمتين (تسامح فريد)".

وتفضيل ذلك أن التسامح الدينى والفكرى له درجات، أدنى درجاته أن تترك لمخالفك (حرية دينية وعقيدته) ولا تجبره بالقوة على اعتناق دينك أو مذهبك بحيث إذا رفض دينك حكمت عليه بالموت أو العذاب أو السجن.

والدرجة الوسطى من التسامح: أن تدع له حق الاعتقاد بما يراه من ديانة أو مذهب ثم لا تضيق عليه بترك أمر يعتقد وجوبه أو فعله لأمر يعتقد حرمة فإذا كان اليهودى يعتقد حرفة العمل يوم السبت فلا يجوز أن تكلفه بعمل فى هذا اليوم لأنه لا يفعله إلا وهو يشعر بمخالفة دينه، وإذا كان المسيحى يعتقد بوجوب الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد فلا يجوز أن يمنع عن ذلك.

وأعلى درجات التسامح: ألا تضيق على المخالفين لك فيما يعتقدون من حلال فى دينهم ولو كنت تعتقد أنه حرام فى دينك، وهذا ما كان عليه المسلمون مع المخالفين من أهل الذمة، لقد ارتفعوا معهم إلى

(١) راجع: أحمد بن حنبل العسقلانى: كتاب: الدور الكامنة فى أعيان المئة الثامنة، طبعة دا الجبل، بيروت، لبنان، ج٣، ص٤٠٠.

الدرجة العليا من التسامح تركوهم يفعلون كل ما يعتقدون أنه حلال في دينهم، وتركوهم وما يدينون^(١).

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى علاقة المسلمين مع أهل الذمة في بلدنا الحبيب مصر فقد ثبت أن أهل الذمة يملكون الضيعات الكبيرة من زمن قديم، ولم يكونوا طبقة في المجتمع المصرى وإنما كانوا فى قلب وشرابين الجسم المصرى، فكان منهم الفنانون والصناع ، والتجار، والمزارعون ، وأصحاب الأراضى الزراعية، والعلماء والأطباء والشعراء والمؤرخون والمتقنون، وأصحاب المهن، وكل هؤلاء كانوا يمارسون شعائرهم الدينية والعقدية فى حرية تامة دون اعتداء أو ضغط على أحد.

ومما يضاف إلى ذلك أيضاً: أن المسلمين وأهل الذمة فى مصر الإسلامية اشتركوا جميعاً فى الأعياد الدينية والقومية، ولم يختلف أهل الذمة عن المسلمين حتى فى العادات والتقاليد، أو فى المدن السكنية أو ما شابه ذلك .. وكل هذا يدل على عظمة الإسلام وتعاليمه فى تطبيق مبدأ التسامح مع غير المسلمين^(٢).

حقاً : إن الدين الإسلامى دين العقلانية والموضوعية، والالتزام، ودين الحرية الفكرية والدينية ولذا كان معظم الذين دخلوا فى الإسلام ..

(١) راجع: صحيفة اللواء الإسلامى عدد الخميس الموافق ٨ من جمادى الآخر ١٣٤١هـ ، ٣ من ديسمبر سنة ١٩٩٢م، و د/ إبراهيم سليمان "معاملة غير المسلمين فى دولة الإسلام"، ص ١١٥ - ١١٦، باختصار.

(٢) راجع: ساويرس: سير الأباء البطارقة، ط عام ١٩٦٨م ، نشر الجمعية القبطية بالقاهرة، ص ٧-٩، بتصرف.

دخوله بسبب تطبيق مبدأ التسامح، والكلمة الطيبة اللينة، والإقناع وإعمال الفكر أضعافاً مضاعفة^(١).

ونحن كمسلمين يجب علينا أن نؤمن كل الإيمان بأنه لا إكراه فى الدين، ولو شاء الله عز وجل لهدى الناس جميعاً، ولكنها حكمة يعنمها الخلاق العليم قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضَلِّ لَ فَلَئِن تَجِدَ لَهُ وَايًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

يجب علينا ان نؤمن كل الإيمان بأن الله عز وجل أمرنا بالدعوة إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن، وعدم مجادلة أهل الكتاب بالعنف والغلظة، فلنا ديننا ولهم دينهم، والله تعالى هو الذى يفصل بين عباده يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، فلا اعتراض لنا على أهل الكتاب .. وليس لهم حق الاعتراض علينا من حيث العقيدة وكل منا يدعوا إلى دينه بالحجة والبرهان والعقل والمنطق بعيداً عن المهاترات والأحقاد والضغائن والاعتداء .. وإلى الله عاقبة الأمور.

يجب علينا أن نؤمن بأن أهل الكتاب لهم أن يتحاكموا إلى كتبهم وأن نتركهم وما يدينون لهم مالنا، وعليهم ما علينا، فلا نتدخل فى أحوالهم الشخصية ولا فى طقوس عبادتهم، وأن كنائسهم لها حرمتها فلا يعتدى عليها. ولعل الأسس والأدلة التاريخية التى سقناها فى ثنايا البحث

(١) راجع: محمود النبوى الشال: كتاب "الإسلام رسالة السماء" ط الأولى، عام ١٩٧٨م، القاهرة، ص٥٦، بتصريف.

لخير دليل وأوضح شاهد على ما كان عليه الرسول ﷺ وخلفاؤه
الراشدون في معاملتهم لأهل الكتاب، وغيرهم.

هذا هو منهج الإسلام العادل في تطبيق (مبدأ حرية العقيدة وحق
الإنسان فيها دون فرض أو إكراه) .. ومن ثم كانت المعاملة الطيبة
والعلاقات الحسنة، والصلات الزاكية عنواناً أكيداً على نفاء المعدن
وصفاء الفطرة، وقرب الإنسان من ربه، وأمته.

وحقوق المواطنين وواجباتهم التي يتبادلونها ويتعاملون على
الوفاء بها وتتميتها فريضة محتومة لا ينبغي التفاوضي عنها، ولا يجوز
أن يحوم حولها إفراط ولا تفريط .. فما من أمة شاع منها احترام
الحقوق وأداء الواجبات إلا استمسك عودها، وقويت شوكتها وعز
أمرها، وعجز عدوها عن النيل منها.

وواجب المسلمين في كل دولة إسلامية مراعاة حقوق إخوانهم
من غير المسلمين وأن يعلم الجميع أن الإسلام ورسوله ﷺ، قد عاملا
غير المسلمين معاملة حسنة على أنهم شركاء في الوطن .. ومن هنا
نتيقن تماماً أن الإسلام سهل، وسمح لا يحمل الحقد والكراهية والعدوان
لمخالفته في العقيدة.

والله من وراء القصد

التسامح الإسلامي

بين النظرية والتطبيق

أ. وليد عبد الماجد كساب (*)

تمهيد :

التسامح قيمة إسلامية رفيعة ، دعا إليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكان الرسول ﷺ مثلاً عملياً وتطبيقياً لهذا الخلق النبيل، حيث جاءت حياته مليئة بالمواقف المشهودة التي وقف التاريخ أمامها مكبراً ومسجلاً لها بحروف نورانية مشرقة.

وقد كان للتسامح أثره البالغ في الحضارة الإسلامية حين تعامل المسلمون به كواجب ديني تحتمه الشريعة؛ ففتحت كثير من البلاد بمساعدة أهلها أنفسهم؛ ودخل آخرون في دين الله أفواجاً جراء التسامح والمعاملة الحسنة الطيبة التي رأوها من المسلمين.

إن التاريخ ليحفل بكثير من المواقف التي تبرز جوهر الإسلام الناصع منذ عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، ثم الخلافت الإسلامية المتعاقبة على حكم البلاد والعباد، وهذا ما حدا بالمنصفين من غير المسلمين أن يسجلوا شهاداتهم حول سماحة الإسلام مؤكداً على تلك الحقيقة التي تميز بها الإسلام فسعد بها العالم كثيراً.

لقد كفل الإسلام للإنسان حقوقه دون النظر إلى عقيدته، قبل أن يعرف العالم ما يسمى " بالليبرالية " أو " منظمات حقوق الإنسان "،

(*) باحث بالأمانة العامة لرابطة الجامعات الإسلامية .

وقبل أن تدعو الولايات المتحدة الأمريكية إلى كتابها أو " الديمقراطية " التي يسهر الخلق جراها ويختصمون.

وليس غريباً أن ينشغل المسلمون في شتى بقاع المعمورة بالحديث عن التسامح الإسلامي وعلاقة الإسلام بالآخر، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي جاءت لتضع المسلمين وندهم - ودون غيرهم - في قفص الاتهام، ولم لا؟! فقد أصبح الإسلام هدفاً يسعى الغرب لوأده والقضاء عليه، وأضحى العدو التقليدي الأول بعد أن تجاوزت الشيوعية فكانت نسبياً منسياً.

ومما يؤسف له أن الهجوم السافر الذي يتعرض له المسلمون قد أفقدهم كثيراً من توازنهم؛ فالحكومات الإسلامية تعرفوها هزة عنيفة لمجرد ذكر كلمة " الجهاد " بل إن ذلك يعد سبباً كافياً لمعاقبة كل من يدعو إلى الجهاد بأية وسيلة، سواء أكانت مشروعة أم غير مشروعة، وكثير من علماء الدين يختزلون تعاليم الدين ومقاصد الشريعة في مفهوم التسامح وقبول الآخر، تحت مظلة " تطوير الخطاب الديني " متغافلين عن كثير من حقائق هذا الدين الخاتم، وأصبح " الخنوع " و " الهوان " هو اللغة الرسمية عند الحديث عن الإسلام، ففي الوقت الذي ينتهك فيه ستر المسلمين في العراق وفلسطين وأفغانستان وغيرها من بلاد الإسلام؛ نجد من يحدثنا عن " التسامح " و " العفو " مع أن الإسلام قد أمر أهله بالأخذ بأسباب القوة والمنعة حتى يتمكنوا من الدفاع عن دينهم وعقيدتهم، ويستطيعوا أداء شعائرتهم.

ومن عجب أن يشار إلى المسلمين بأصابع الاتهام دون غيرهم، وكان الإرهاب وترويع الأمنيين صناعة إسلامية، وجزء لا ينفصل من

الدين الإسلامي، في الوقت الذي يغفل فيه جانب الإرهاب الغربي - الأمريكي قديماً وحديثاً، وعندما وقعت الأحداث الدامية الأخيرة في أسبانيا سارعت تلك القوى إلى إلصاقها بالمسلمين بالرغم من وجود العديد من الحركات الانفصالية الإرهابية التي تمتلأ بها الساحة في أسبانيا وعلى رأسها حركة " إيتا " الانفصالية .

إن الإعلام العالمي الذي يملك بنو صهيون ناصيته ويمتطون صهوة جواده يقرون بين الإسلام والقتل وسفك الدماء؛ أما الهندوس والصرب فليسوا إرهابيين؛ وأما مذابح البروتستانت والكاثوليك في أيرلندا، والألوية الحمراء في إيطاليا، فهذا ليس إرهاباً.

لقد أثبتت الأحداث المتلاحقة التي ضربت الكثير من أرجاء العالم أن الإرهاب لغة عالمية لا تقتصر على قطر دون قطر، أو جماعة دون أخرى، كما لا يمكن حصرها في نطاق ضيق أو حيز محدود، لذا فمن الجور أن يقصر الإرهاب على المسلمين، وكل العالم يعاني من سكرات الإرهاب.

إن خروج ثلثة من أهل الإسلام على روح الإسلام التي دعا إليها دينهم لا يعني أن الإسلام يدعو إلى الإرهاب؛ ولا يمكن أن يحسب هؤلاء على الدين، فلكل قاعدة شواذ، وإن كان الأمر كذلك فلماذا لا يقال عن المسيحية واليهودية مثل ذلك، بالرغم من الأعمال الوحشية التي يقوم بها بعض المنتمين لهما، وهل يعيب المنهج سوء التطبيق؟! بالطبع لا!! إنما العيب فيمن يطبقون المنهج.

لقد أصبح لزاماً على المسلمين أن يعيدوا ترتيب أوراقهم في هذا الوقت الذي تدعو فيه كل أمة إلى كتابها؛ فالإسلام مستهدف من القوى

المعادية التي لا ترقب في مؤمن إلبا ولا دمة، وصدق الشيخ محمد الغزالي برحمه الله : " لقد مضت عليهم أربعة عشر قرناً، وهم يفترون على الإسلام الكذب ويضعون أمام دعائه السدود، ويعملون في رقاب أهله السيف إذا أسعفتهم القوة، وينسجون لهم الدسائس إذا أعجزهم الضعف ... فماذا جنوا بعد هذا كله ؟ لا الإسلام مات .. ولا قرآنه إلبا .. ولا أمته هلكت".

وفي هذه الدراسة المتواضعة نتحدث عن التسامح كسمة من سمات الحضارة الإسلامية، وكقيمة من القيم العالية التي دعا إليها الإسلام، مسترشدين في ذلك بما أنزله المولى عز وجل في كتابه وبما أثار عن النبي ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله تعالى عليهم، ثم بشهادات غير المسلمين حول سماحة ذلك الدين الحق.

والله ندعو أن يهديننا سواء السبيل

الفصل الأول

التسامح في المنظر القرآني

"السماحة" في اللغة :

السماحة في اللغة تعنى التساهل والتيسير، فقد جاء في مختار الصحاح "السماح والسماحة: الجود، سمح به سماحاً وسماحة: ، وسمح له: أعطاه"^(١)، "وسمح" سموحاً وسماحاً وسماحة: جاد وأعطى، أو وافق على ما أريد منه ، وامرأة سمحة وقوم سمحاء ونساء سماح، وسامحه بكذا: أعطاه وتسامح وتسمح، وأصله الاتساع ومنه يقال: في الحق مسمح أى متسع ومدوحة عن الباطل .."^(٢).

التسامح بين اليهودية والمسيحية :

لم تكن الدعوة إلى التسامح بدءاً ابتدعه الإسلام حين جاء الرسول ﷺ بالرسالة الخاتمة، وإنما دعت إليه الرسالات السابقة، فقد وردت في التوراة نصوص كثيرة تحث اليهود على السماحة والتيسر مثل: "افتح يديك لأخيك المسلم والفقير في أرضك" وأيضاً ذلك التوجيه "لا تظلموا الأرملة ولا اليتيم ولا الغريب ولا الفقير".

ولكن اليهود لم يستمعوا لما جاءهم من الحق كعادتهم أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، بل تمادوا في غيهم فحرفوا التوراة،

(١) أبو بكر الرازي: مختار الصحاح ص ٣٢٠ (بتصرف)، ط دار الحديث، ب. ت.

(٢) الثنوي: المصباح المنير ص ١٠٩ (بتصرف)، ط مكتبة لبنان.

ووضعوا بها من التعاليم الفاسدة الكثير والكثير فقالوا: "لا تُقرض أخاك بربا، أما الأجنبي فأقرضه بربا"^(٣).

أما عن المسيحية فقد ورد في الإنجيل: "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر"، وفي رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية: "فإن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فاسقه، لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه، لا يغلبنك الشر، بل اغلب الشر بالخير"^(٤).

وقد بينت المسيحية أجر التسامح ومثوبته مع الآخرين يقول المسيح عليه السلام، طوبى للرحماء، لأنهم يرحمون^(٥)، وقد عُرف المسيح عليه السلام بسماحته التي فاقت كل الحدود البشرية.

الإيمان بالرسالات السابقة :

نادى القرآن الكريم المسلمين باحترام أصحاب الرسالات الأخرى والإيمان برسالتها، وجعل ذلك واجبا، بل وشرطا من شروط الإيمان قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

قال ابن كثير "أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وما أنزل على الأنبياء

(٣) محمد عطية الإبراشي: عظمة الرسول ص: ٣، ط مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م.

(٤) محمد عطية الإبراشي: الإسلام دين الإنسانية، ط مكتبة مصر سنة ١٩٨١م.

(٥) المرجع السابق.

المتقدمين مجملًا، وقد نص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم»^(٦).

ويقول القرطبي "كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل"^(٧).

وفى موضع آخر يقول تعالى داعياً إلى الإيمان بكل الرسل دون أدنى تفرقه بينهم ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. قال ابن كثير "قال المؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره ولا رب سواه ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ"^(٨).

يقول تعالى مخاطباً المسلمين: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَيْنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

قال مجاهد ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعنى أهل الحرب ومن امتنع منهم عن أداء الجزية، وقوله تعالى ﴿وَقُولُوا آمَنَّا﴾ يعنى إذا

(٦) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (١/١٨٧)، دار التراث العربى للنشر والتوزيع.

(٧) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١/٦٣١)، ط دار الغد العربى.

(٨) ابن كثير: مرجع سابق (١/٣٤٢).

أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه لا تُقدّم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا تصديقه فاعله أن يكون باطلاً، ولكن تؤمن به مجملًا معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً ولا مبدلاً ولا مؤولاً^(٩).

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز "فما الإسلام بالنسبة إلى الرسالات السابقة إلا متمماً لها ومكماً لها، فإذا أخذنا كلمة الإسلام بمعناها القرآني نجد أن الإسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتفت به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء هكذا نرى نوحاً يقول لقومه ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، ويعقوب يوصي بنيه ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وأبناء يعقوب، يجيبون أباهم ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهِهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وموسى يقول لقومه ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، والحواريون يقولون لعيسى ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، بل إن فريقاً من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣].

وبالجملة نرى اسم الإسلام عاماً يدور في القرآن على السنة والأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر الإسلام، ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم في سلك واحد ويجعل منهم

(٩) ابن كثير: (٤١٦/٣).

جميعاً أمة واحدة لها إله واحد، كما لها شريعة واحدة^(١٠) ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِي﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وحسب تعبير الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله تعالى - فقد كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكمة في بinaan الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة أنها أكملت البنيان، وملأت ما بقى فيه من فراغ، وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء، وصدق الله حين وصف خاتم أنبيائه بأنه ﴿جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧].

وحين وصف اليوم الأخير من أيامه بأنه كان إتماماً للنعمة وإكمالاً للدين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير حيث يقول: "إن منلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"^(١١).

إنها إذن سياسة حكيمة لتربية البشرية تربيةً تدريجية لا طفرة منها ولا ثغرة، ولا توقف فيها ولا رجعة، ولا تناقض ولا تعارض^(١٢).

(١٠) نقلاً عن الشيخ محمد الغزالي : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ص ٦٧ -٦٨ بتصرف.

(١١) رواد البخارى فى كتاب المناقب، باب خاتم النبيين.

(١٢) راجع: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام مرجع سابق ص ٧٣ (بتصرف)، دار نيضة مصر - الطبعة الثانية ٢٠٠٠م.

حرية العقيدة في الإسلام

كفل الإسلام الحنيف حرية العقيدة لغير المسلمين، وأمنهم على نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، وأعطاهم ما للمسلمين من حقوق، بل وأعفاهم من بعض الواجبات، وجاءت الآيات في هذا الشأن كثيرة، يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. "أى لا تُكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلى دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحداً على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته ودخل فيه على بينه"^(١٣).

وليس من أهداف الإسلام أن يفرض نفسه على الناس فرضاً حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، فنبى الإسلام هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هي محاولة فاشلة، بل هي مقاومة لسنة الوجود ومعاينة لإرادة رب الوجود ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية المحكمة والمبرمة في القرآن في قاعدة حرية العقيدة "لا إكراه في الدين" ومن هنا رسم القرآن أسلوب

(١٣) ابن كثير: مرجع سابق (٣٠/١).

الدعوة ومنهاجها فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة في رفق ولين ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، على أن الإسلام لا يكتفى منا بهذا الموقف السلمى السلبي، وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه، بل يتقدم بنا إلى الأمام فيرسم لنا خطوات إيجابية يكرم بها الإنسانية في شخص المسلمين^(١٤).

المجادلة بالتي هي أحسن :

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله وعباده المؤمنين بالإحسان في معاملة أهل الكتاب، ومجادلتهم بالتي هي أحسن ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال ابن جرير "وهو ما أنزل عليه من الكتاب والسنة والموعظة بالحسنة، أى بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، "وجادلهم بالتي هي أحسن" أى من احتاج فيهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

حسن قتال المشركين :

(١٤) الشيخ محمد الغزالي : مرجع سابق ص ٧٦.

ومن سماحة القرآن دعوته إلى قتال المشركين دون الاعتداء على الحرمات بغير حق قال تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْقَهُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

ولقد رأينا المسلمين لم يحاربوا إلا لصدوا الاعتداء عليهم وعلى دولتهم وعقيدتهم، ووجدانهم لم يستلوا سيوفهم إلا عند اليأس من مسالمة الأعداء، ولم يتجاوزوا في حربهم حد الدفاع والترهيب إلى الانتقام الحاقد، كما فعل الغرب مع المسلمين في أسبانيا وفي البلقان، وكما يفعل الأمريكان والبريطانيون ومن على ساكنتهم بالمسلمين في العراق وغيره من بلاد الإسلام.

والمسلمون يجنحون إلى السلم إذا ما جنح لها الأعداء، ولا يخربون العمران، ولا يهدمون الكنائس، ولا يرغمون أحداً على الدخول في الدين، وليس أدل على ذلك من أن الإسلام قد ذاع في مكة، وكان النبي ﷺ وأتباعه قلة لا يملكون من القوة ما يردون به عن أنفسهم الأذى والعدوان، ثم استمر ينتشر بقوته الذاتية في كل عصر حتى في العصور التي ضعف فيها المسلمون.

كان ذلك عرضاً موجزاً لبعض التوجيهات القرآنية التي تدعو إلى التسامح مع أهل الكتاب والكفار، وبلا شك فهي بعض من كل؛ فالقرآن الكريم مليء بالتوجيهات الربانية التي تدعو إلى هذا الخلق القويم.

الفصل الثانی

صور من سماحة النبی ﷺ وخلفائه الراشدين

سماحة الإسلام مع أهله :

دعا الإسلام إلى السماحة كفضيلة من الفضائل التي شرعت للتيسير على الخلائق ورفع الحرج عنهم، يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقد نهى المولى عز وجل عن التشدد والرهبانية التي تقيد النفس بقيود شديدة الوثاق، كما كانت المسيحية عند ظهور الإسلام، وعاب على أهل الكتاب تشددهم في العبادات فقال عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

والتيسير على الناس ورفع الحرج عنهم أمر رئيس ومعتبر في الشريعة الإسلامية، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في مواضع عدة، منها قوله سبحانه: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ومن مظاهر السماحة في العبادات إسقاط فريضة الحج عن من لا يستطيع أداءها، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَيُّ النَّيِّتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقد أقر الرسول الكريم ﷺ دعوة القرآن للتسامح والتيسير في العبادات، لما لذلك من مردود إيجابي على الحياة الإنسانية بشتى جوانبها، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: "لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك

بقاياهم في الصوامع والديارات" ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧].

وفي توجيه نبوي آخر يشير ﷺ إلى ضرورة التيسير في كل الأمور، يقول ﷺ: "إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة"^(١٥).

وتبدو سماحة الإسلام بجلاء في الرخص التي أعطها الشارع سبحانه وتعالى للناس لرفع الحرج عنهم، والرخصة هي ما شرعه الله من الأحكام للتخفيف عن المكلفين في الأصول غير العادية، أي الأحكام الاستثنائية التي شرعت لوجود عذر شاق يمنع المكلف من الالتزام بالحكم الأصلي، ولا تطبق إلا في أحوال خاصة، كرخصة الفطر للمسافر والمريض في شهر رمضان، لما في الصوم مع السفر أو المرض من المشقة الشديدة والضيق الزائد، وأيضاً رخصة أكل الميتة أو شرب الخمر لمن أشرف على الهلاك من شدة الجوع أو العطش ولم يجد إلا ميتة أو الخمر للمحافظة على حياته.

إن فقد قرر القرآن قاعدة مهمة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فالأصل في التشريع هو التيسير وهو المقصد الأسمى للشريعة الإسلامية الغراء.

وكان الرسول ﷺ أعظم أسوة في سماحة النفس، ولين الطبع، وسهولة المعاملة ، وكمال الخلق فكان بأخلاقه صلوات الله صاحب

(١٥) رواه البخارى.

دعوة عملية للتطلى بهذا الخلق، ويسائر فضائل الأخلاق ومحامد السلوك، ولم يكن صلوات الله عليه نكداً ولا صعباً ولا فظاً ولا غليظاً، ولذلك أثنى الله عليه بالرفقة ولين الجانب ولطف الحديث، إذ نفى عنه الفظاظة وغلظ القلب، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 1٥٩]، أى لست يا محمد فظاً فى أقوالك ومخاطباتك للناس، ولا غليظ القلب عديم الرفقة واللطف والرحمة فى واقع حالك الخلقى، وليس من شأنك ولا من شأن أى داع يدعو إلى الله أن يكون فظاً أو غليظاً لأن هذين منفردان يجعلان الناس ينفضون من حول الداعى إلى الله^(١٦).

تسامحه مع غير المسلمين :

ومن كمال سماحته ﷺ تسامحه مع غير المسلمين استجابة لأمر الله سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ١٦].

يقول الدكتور دراز "فأنت تراه لا يكتفى منا بأن نجبر هؤلاء المشركين ونؤويهم ونكفل لهم الأمن فى جوارنا فحسب، ولا يكتفى منا بأن نرشدهم إلى الحق ونهديم طريق الخير وكفى؛ بل يأمرنا بأن نكفل لهم كذلك الرحمة - الحماية والرعاية فى انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذى يأمنون فيه كل غائلة، ثم هل ترى أعدل وأرحم وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الإسلامية التى لا تكفل لغير المسلمين فى بلاد الإسلام حرية عقائدهم أو عوائدهم وحماية أشخاصهم

(١٦) الميدانى: الأخلاق الإسلامية وأسسها (٤٦٢/٢) دار القلم طه - ١٤٢٠هـ/

وأموالهم وأعراضهم، بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من حقوق العامة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" هل ترى أوسع أفقاً وأرحب صدرأ، وأسبق إلى الكرم، وأقرب إلى تحقيق السلام الدولي والنقاش السلمى بين الأمم، من تلك الدعوة القرآنية التى لا تكتفى فى تحديد العلاقة بين الأمم الإسلامية وبين الأمم التى لا تدين بدينها ولا تتحاكم إلى قوانينها"^(١٧).

لقد بلغت السماحة برسول الله مبلغاً عظيماً فكما كان سمحاً فى حياته كان كذلك سمحاً فى حروبه مع أعدائه، فكانت هذه التعاليم والأوامر لأصحابه المحاربين لا تخريب ولا تدمير، ولا تعرض لغير المقاتلين من الأطفال والنساء والرهبان ولا تشويه ولا تمثيل بجثث القتلى.

أخرج مسلم عن سليمان بن بريرة عن أبيه رضى الله عنهما قال "كان رسول الله إذا أمرَ أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال "اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله" اغزوا ولا تغلوا (أى لا تأخذوا شيئاً من غنائم الحرب قبل قسمتها) ولا تغدروا ولا تمتلوا (لا تشوهوا القتيل بتقطيع بعض أجزائه على سبيل الانتقام والتشفى) ولا تقتلوا وليداً"^(١٨).

هكذا كانت سماحة الرسول فى حروبه بل نجده يفضب غضباً لم يفضب مثله قط لقتل امرأة فى إحدى المعارك، فقد روى الإمام البخارى

(١٧) الشيخ محمد الغزالي مرجع سابق ص ٧٧.

(١٨) رواه مسلم فى كتاب الجهاد والسير - باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها.

عن الليث عن نافع أن عبد الله رضى الله عنه أخبره "أن امرأة وجدت في بعض مغازى النبي مقتولة، فأنكر رسول الله قتل النساء والصبيان" (١٩).

وكذلك نهى رسول الله عن قتل المعاهد بغير جرم، فعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله: "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً" (٢٠).

وتتجلى سماحة النبي ﷺ في أعظم صورها في صلح الحديبية حين اشترطت قريش على النبي شروطاً قاسية، منها: من جاء من عند المسلمين إلى قريش لا ترده قريش، ومن جاء إلى المسلمين بغير إذن وليه رده المسلمون، وقيل النبي ﷺ شرطهم الجائر لحكمة رآها وغضب بعض الصحابة للشرط، وما كادوا ينتهون من توقيع المعاهدة حتى جاء أول امتحان للوفاء، إذ وصل مسلم من مكة اسمه أبو جندل بن سهل فاراً من أذى قومه، وألح على الرسول في أن ينضم إلي المسلمين؛ لكن الرسول رده وفاء بعهده، فقال أبو جندل: إنهم سيعذبوننى؛ فقال له الرسول: "اصبر واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً" إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم" (٢١).

(١٩) رواد البخارى كتاب الجهاد والسير باب قتل الصبيان فى الحرب.

(٢٠) رواه البخارى كتاب الجزية - باب من قتل معاهداً بغير جرم.

(٢١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/٣٦٧) ت- طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية.

وإن سماحة الرسول لتتجلى في أعظم صورها حتى في الموقف المهتاج الذي تجنح فيه النفوس إلى الانتقام، فقد كانت الأمم تعامل أسراها معاملة العدو البغيض، فنقتلهم أو تبيعهم أو تسترقهم، أما الرسول فقد عامل أسرى بدر معاملة حسنة ذلك بأنه وزع الأسارى السبعين على أصحابه وأمرهم أن يحسنوا إليهم، فكانوا يفضلونهم على أنفسهم في الطعام، وهكذا أرسى النبي ﷺ هذه القواعد الإنسانية في معاملة الأسرى وذلك قبل أن يعرف العالم هيئة الأمم ومجلس الأمن، وغيرها.

وكذلك حين دخل النبي مكة يوم الفتح قادراً قال لقريش "ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين".
وصدق الله إذ يقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران ١٥٩].

نماذج

من سماحة الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم)

كان أبو بكر الصديق - وهو الخليفة الأول للنبي ﷺ يفتى أنز النبي ﷺ في تعامله مع غير المسلمين سواء من المشركين أم من أهل الكتاب، فيروى أنه ﷺ عندما أرسل الجيوش إلى الشام أمر عليهم يزيد بن أبي سفيان، وقال له: إني موصيك بعشر خلال: لا تقتل أرملة، ولا صبياً، ولا كبيراً هرمأً ولا تقطع شجراً مثمرأً، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة، ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تغرقن نخلاً، ولا تحرقنه، ولا تغل ولا تجبن^(٢٢).

وسار الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ على نفس الدرب الذي سار عليه أبو بكر الصديق في الإحسان إلى أهل الكتاب والمشركين تأسيأً بالنبي ﷺ، فقد روى عنه أنه أرسل رسالة إلى المجاهدين يوصيهم فيها بالضعفاء وعدم الاعتداء على حرمان الآخرين فقال " بسم الله، وبالله، وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله، وما النصر إلا من عند الله، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمتلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرمأً ولا أرملة ولا وليدأً، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات"^(٢٣).

(٢٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء/ ٩٧.

(٢٣) أبو يوسف الخراج يتصرف.

وكان رضى الله عنه حريصاً على رعايا الإسلام على اختلاف عقائدهم ، فقد روى أنه رأى عجوزاً يسأل الناس، فعلم أنه يهودى، فقال له ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية، والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله وأكرمه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شيبته ثم نخذله عند الهرم، وأمر فرفعت عنه الجزية وعن أمثاله وأوصى له براتب من بيت مال المسلمين.

وحدث أن ابن عمرو بن العاص - والى مصر - ضرب قبطياً، فاشتكاها القبطى لعمرو بن الخطاب فبعث عمر إلى عمرو وابنه فاستقدمهما من مصر إلى المدينة، وأمر القبطى أن يقتص من ابن عمرو فضربه كما ضربه، ولما أخذ القبطى بحقه قال له عمر: اضرب أباه على صلغته ، فتعجب القبطى من ذلك قائلاً: قد أخذت بحقى ممن ضربنى ، فقال عمر: بل اضربه. فوالله ما ضربك إلا بسُلطان أبيه .. إنها عظمة الإسلام التى لا تدانيها عظمة، وعدله الذى لا يضارعه عدل.. فأى نظام هذا الذى يعطى أحد الرعية حقه فى القصاص من رئيس الدولة بهذا الشكل الذى رأيناه، فأى ديموقراطية تلك التى يتشدد بها الغرب، ويسهر الخلق جراها ويختصموا، وهل تقاس بهذه العظمة .. تلك إذن قسمة ضيزى.

كما كان رضى الله تعالى عنه حريصاً على أن يمارس أهل الكتاب طقوسهم فى أماكن عبادتهم، ولما دخل إلى كنيسة بيت المقدس

وحان موعد الصلاة خرج فصلى على السلم، فسئل عن ذلك؛ فقال:
خشيت أن أصلى داخلها فيتخذها المسلمون مسجداً بعد ذلك^(٢٤).

ولم يكن على بن أبي طالب ليحيد عن طريق رسول الله ﷺ ولا
عن طريق أصحابه - رضوان الله تعالى عليهم - فقد ورد أنه كتب إلى
الأشتر النخعي خطاباً يوصيه فيه بأهل أحد البلاد المفتوحة يقول فيه "إن
عقدت بينك وبينى عدو عقداً، أو ألبسته منك ذمة، فحط عبدك بالوفاء،
وأرح ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دونما أعطيت؛ فإنه ليس من
فرائض الله شئ الناس أشد اجتماعاً عليه مع تفرق أهوائهم من تعظيم
الوفاء بالعهود، فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهدك"^(٢٥).

وفى رسالة أخرى يبعث بها إلى واليه نجده - كرم الله وجهه -
يرسم له طريقة التعامل مع رعايا الدولة الإسلامية، فيحذره من إساءة
معاملتهم ، ويوصيه بأن يجعل في طنب الخراج، وأن يراعى الجانب
الإنساني الذي يتميز به الإسلام، يقول كرم الله وجهه : "إذا قدمت عليهم
فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفاً، ولا رزقاً يأكلونه، ولا دابة يعملون
عليها، ولا تضربن أقدامهم سوطاً واحداً في درهم، ولا تقمه على رحلة
في طلب درهم، ولا تبع لأحد منهم عرضاً (متاعاً) في شئ من الخراج،
فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو، فإن أنت خالفت ما أمرتك به، يأخذك
الله به دونى، وإن بلغنى عنك غير ذلك عزلتكَ، قال الوالى: إذن أرجع

(٢٤) يراجع كتاب الأستاذ نظمي لوقا: عمر بن الخطاب .. البطل والمثل والرجل، ط دار
الحرية، ١٩٨٦م ، و أيضاً كتاب الدكتور إدوارد غالى الذهبى: النموذج المصرى للوحدة
الوطنية، ط مكتبة الأسرة ١٩٩٨م.

(٢٥) د. جعفر عبد السلام: الإسلام وحقوق الإنسان، ص ١٩٧ .

إليك كما خرجت من عندك، فقال له الإمام على كرم الله تعالى وجهه:
وإن رجعت كما خرجت" (٢٦).

وأثر عنه كرم الله وجهه - أيضاً أنه قال عن هؤلاء "إنما بذلوا
الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ، ودمائهم كدمائنا".
وحدث أن يهودياً شكاه لعمر بن الخطاب - وكان قاضياً في
عهد أبي بكر الصديق - فقال له عمر: قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار
خصمك؛ ففعل وعلى وجهه علامات التأثر، فلما فصل في القضية قال
لعلى: أكرهت أن تساوى خصمك: قال: لا؛ لكنى تألمت لأنك ناديتني
بكنيتي؛ فلم تسونى باليهودي؛ فخشيت أن يظن أن العدل قد ضاع بين
المسلمين.

حقاً إنها صور مشرقة من أخلاق هذا الدين الخاتم، ولا غرو في
ذلك، فالله سبحانه وتعالى قد ختم بها الرسالات وفي ذلك نكرى لمن
كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(٢٦) أبو يوسف: الخراج ص ١٤، ١٥ (بتصرف).

الفصل الثالث

شبهات حول سماحة الإسلام

الشبهة الأولى : انتشار الإسلام بحد السيف :

يرى القائلون بهذه الفرية أن الإسلام انتشر بحد السيف، وأن أتباعه عملوا على نشره دون النظر إلى الوسيلة ومدى تعارضها مع الإنسانية وحقوق الإنسان، عملاً بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وفيما يلي نبين خطأ هذه الفرية، وكذب أصحابها، ونفضح نواياهم السيئة.

إن القرآن الكريم: مليئ بالتوجيهات الربانية التي تنادى بحرية العقيدة في الإسلام فيقول: "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فيكفر" [الكهف: ٢٩] وكذلك فإن القرآن وضع الأسس التي ينبغي أن تكون عليها الدعوة إلى الله يقول سبحانه: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة" [النحل: ١٢٥] والنبى صلى الله عليه وسلم نجده في جميع حروبه يوصى جنوده بألا يقتلوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة ولا راهباً.

ولم يثبت أن النبى ﷺ أكره أحداً من المشركين على الدخول في الإسلام رغم تمكنه من المشركين - وخاصة يوم الفتح - ولو كان ذلك من شأنه لأعمل فيهم السيف، ولعل مجرد بقاء الكنائس والمعابد حتى الآن لدليل على تسامح الإسلام الذي ساد العالم شرقاً وغرباً، ولو أراد المسلمون استئصال اليهود أو النصارى ما كان ذلك عليهم بعسير.

تقول المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكة" في كتابها "الله مختلف تماماً" "لقد لعب التسامح العربى دوراً حاسماً في انتشار الإسلام، وذلك

على العكس تماماً من الزعم القائل بأنه قد انتشر بالنار والسيف وقد أصبح هذا الزعم من الأغاليط الجامدة ضد الإسلام^(٢٧).

أما توماس أرنولد فيقول "إذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحول الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق"^(٢٨).

ثم يواصل قائلاً "إن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح، ومن المعروف أن جيوش المسلمين لم تذهب إلى جنوب آسيا أو غرب أفريقيا، إنما انتشر الإسلام هناك عن طريق التجار والمتصوفة من المسلمين بعد أن رأى الناس عملياً سلوكهم وأخلاقهم وحسن معاملتهم، فأقبلوا على الإسلام دون أن يرغمهم أحد على الدخول فيه.

وحسب ما يرى الأستاذ العقاد فإن نظرة عابرة إلى البلاد الإسلامية لتكفي لتقرير وقائع التاريخ في هذه المسألة، فإن أكثر البلاد الإسلامية عدداً هي أقل البلاد غزوات إسلامية، وإن المسلمين لم يচারبوا قط في صدر الدعوة إلا مدافعين أو دافعين لمن يصدون الدعوة بالموعظة الحسنة من ذوى السلطان، وكذلك كانت وقائعهم مع مشركى

(٢٧) نقلاً عن د. محمود حمدي زقزوق الإسلام في مواجهة حملات التشكيك، ط

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٢م ص ٤٥، ٤٦ ..

(٢٨) د. محمد إبراهيم الجيوشى التسامح في الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،

١٩٩٦م، ص ٥٧ .

الجزيرة العربية كما كانت وقائعهم مع الفرس والروم .. وقبل غزو فارس بزمان طويل كان كسرى يبعث بعوثة في طلب صاحب الدعوة الإسلامية حياً أو ميتاً، لأنه خاطبه داعياً إلى الإسلام.

إن من لا يفهمون الإسلام فهماً شمولياً صحيحاً يحسبون أن الإسلام يوجب القتال الدائم على المسلم كما يوجب الصلاة والصيام وسائر الشعائر المفروضة، ويعدون هذه الفريضة بدعة بين الفرائض الدينية أو بين الفرائض الإنسانية التي قررتها دساتير الأخلاق في أمور العقائد على الإجمال، وحقيقة الأمر أن الأساس الأخلاقي الذي قامت عليه فريضة الجهاد - فضلاً على الأساس الديني - يستقيم مع كل أساس سليم لكل اعتقاد قويم.

فماذا تقول شريعة الأخلاق في الواجب على الإنسان نحو عرضه؟ أن الإسلام لا يقول شيئاً غير الذي يقوله هداة الوطنية والشرف حين ينكرون على المرء أن ينكص عن الجهاد في سبيل وطنه وكرامته وعرضه، ويعيبون عليه أن سالم من يقاتلونه في سبيل حريته وحرية بلاده، وليس بالدين الصالح للإيمان به دين ينزل بحرية الضمير عن مرتبة الحرية في الموطن والمعاش^(٢٩).

الشبهة الثانية: لقد جاء المسلمون كمستعمرين :

يروج بعض الحاقدين على الإسلام أقوالاً لا يصدقها عقل ولا يؤيدها نقل وهم يحاربونه بكل ما أوتوا من قوة.

(٢٩) عباس محمود العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ١١٠ (بتصرف) ط دار الرشاد الحديثة، ب.ت.

يقولون بأن فتح البلاد يعتبر استعماراً لها، وذلك أمر عجيب، فالاستعمار كما هو معروف على مر التاريخ هو استغلال واستنزاف لثروات البلد المحتل دون النظر إلى أهل هذه البلاد أو إلى مدى حاجتهم إلى تلك الثروات، وهذا ما فعلته بريطانيا في مصر، وفرنسا في الجزائر، وإيطاليا في ليبيا، وهذا لم يكن من شأن الفتوحات الإسلامية.

وإذا ما عقدنا مقارنة بين الاحتلال البريطاني لمصر والفتح الإسلامي للأندلس يتبين لنا الفرق واضحاً جلياً بينهما، فقد عمل الاحتلال البريطاني منذ أول يوم جاء فيه إلى مصر على استنزاف ثرواتها، بينما جاء الفتح الإسلامي إلى أسبانيا فجعلها جنة فيحاء، فكانت أول بلد أوروبي - وربما في العالم - تضاء شوارعها ليلاً في الوقت الذي كانت أوروبا تعج بالخرافات الكنسية، أما من الناحية الشرعية فقد رفض الإسلام الجهاد بهدف الحصول على الغنائم فيقول تعالى: ﴿ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقد سئل النبي ﷺ عن رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا - أي يبتغي الحصول على الغنائم - فقال "لا أجر له" وكرر ذلك ثلاث مرات.

وكذلك فإن القول بأن الفتوحات الإسلامية كانت توسعات استعمارية ذات طابع اقتصادي يعد عملية إسقاط لما فعله الاستعمار الغربي بالبلاد الإسلامية في العصر الحديث على فتوحات المسلمين في السابق وبينهما بون شاسع!! ولذلك نجد في التاريخ والسير أن خالد بن الوليد عقد معاهدة مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة سجل فيها نصاً يقول: "فإن منعناكم (أي قمنا بحمايتكم) فلنا الجزية وإلا فلا" وقد

حدث بالفعل أن قام المسلمون برد الجزية إلى أهل المدن المفتوحة في الشام حينما شعروا أنهم غير قادرين على توفير الحماية اللازمة لهذه المدن وكان ذلك في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب حينما حشد الإمبراطور هرقل جيشاً ضخماً لحرب المسلمين، وشغل المسلمون حينذاك بالمعركة مع جيش الروم، وكتب القائد العربي لأهل هذه المدن "إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنما لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم"^(٢٠)، إذن فلا داعى لما يقول المغرضون الذين لا يبرحون يهاجمون الإسلام في ميادينهم وبين أهله.

الشبهة الثالثة : حد الردة انتهاك العقيدة :

المرتد في الشرع : هو الراجع عن دين الإسلام، وقد تكون بالألفاظ أو الأفعال أو الاعتقادات، فتكون باللفظ حين يتكلم المسلم بكلمة الكفر كسب الله ورسوله، وبالأفعال بأن يأتي المسلم عملاً يدل على استخفافه بالدين، وقد يكون بالاعتقاد بأن يعتقد المسلم أموراً باطلة متناقضة لما عرف من الدين بالضرورة مثل إنكار وجود الله أو اليوم الآخر، وأن محمداً ليس خاتم النبيين.

ويشترط لوقوع الردة أن يكون المرتد عاقلاً مختاراً، فلا تعتبر ردة الصبي والمجنون ولا السكران الذي زال عقله بالسكر ولا المكره إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان.

(٢٠) الإسلام في مواجهة حملات التشكيك (مرجع سابق) ص ٤٩ .

وعقوبة المرتد القتل لقوله ﷺ: "من بدل دينه فاقتلوه" وهذا الحكم يشمل الرجل والمرأة عند الجمهور، أما الحنفية فيرون أن المرتدة لا تقتل بل تحبس حتى تتوب، وعن إمهال المرتد قبل قتله قال الجمهور بوجوبه، ويعرض الإسلام عليه لعله يرجع عن رده، فإن أبى قتل، وقال الحنفية الإمهال ليس واجباً، بل مستحباً^(٣١).

إن الذين يعيبون على الإسلام تطبيقه لحد الردة قد تغافلوا حقيقة مهمة جداً، وهى أن جريمة "الخيانة الكبرى" توجب الإعدام فى الكثير من دول العالم، هذا عن خيانة القواعد والقوانين الوضعية، فما بال هؤلاء لا ينطقون عند تسفيهه الشرائع الإلهية.

إن قتل المرتد فى الشريعة الإسلامية ليس لأنه ارد فقط ، ولكن لإثارته الفتنة والبلبلة وتعكير النظام العام فى الدولة الإسلامية، أما إذا ارد بينه وبين نفسه دون أن ينشر ذلك بين الناس ويثير الشكوك فى نفوسهم، فلا يستطيع أحد أن يتعرض له بسوء فانه وحده هو المطلع على ما تخفى الصدور^(٣٢).

(٣١) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، الرسالة ١٩٨٧، ص ٢٨٩ .

(٣٢) الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك (مرجع سابق)، ص ١٣٠ .

الفصل الرابع

من شهادات غير المسلمين

والآن نود - بشئ من الإيجاز - أن نورد شهادات غير المسلمين حول سماحة هذا الدين الحنيف ، وهى بلا شك أدلة دامغة واضحة لا تحتمل التأويل والتشكيك، وإنما هى بمثابة براهين جلية، لأنها ما نبعت من لدن المسلمين أنفسهم، ولكن قالها غيرهم ممن أعجبوا بهذا الدين وعظمته وسماحته على مر العصور والقرون.

بعد سنوات قضاهها القائد الفرنسى الفذ "تابلين بونابرت" فى محاولة يائسة للهيمنة على مقاليد الأمور فى كثير من بقاع الأرض، ومنها بعض الدول الإسلامية، جال بخاطرة تساؤل أرقه وأجهده : ما هو السبب الفعال فى الانتشار السريع للدين الإسلامى، يقول: "إننا إذا طرحنا جانباً الظروف العرضية التى تأتى بالعجائب، فلا بد أن يكون من وراء انتشار الإسلام سر لا نعلمه، وأسباب مجهولة مكنته من الانتصار السريع على المسيحية، وربما كانت العلة المجهولة أن هؤلاء القوم الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحارى قد صهرتهم قبل ذلك حروب داخلية عنيفة وحماسة غالبة، وربما كانت هذه العلة شيئاً آخر من هذا القبيل"^(٢٣).

ولا شك أن بونابرت - وهو القائد الذى أفرط المؤرخون والساسة فى وصف ذكائه ودهائه، قد غفل - وربما تغافل - عن حقيقة كبرى، وهى أن لسماحة الإسلام دوراً كبيراً فى انتشاره بين الشعوب

(٢٣) د. أحمد الحوفى: سماحة الإسلام، ص ٨٥، (بتصرف).

على اختلاف ثقافتها ومشاربها، والشهادات حول هذا الموضوع كثيرة بحيث يضيق المقام عن ذكرها، لذا سنكتفى بذكر نزر يسير منها وكل هذه الشهادات جاءت من الغرب وإليه ترجع، فتلك بضاعتهم ردت إليهم.

ويرى " غوستاف لوبون " أن أهم ما تميز به المسلمون الفاتحون هو دماثة خلقهم وتسامحهم الذي فاق كل الحدود، وكان لذلك كبير الأثر على البلاد التي فتحوها، فيقول: "إن اظهر ما يتصف به الشرقيون - المسلمون - هو أدبهم الجم وحلمهم الكبير وتسامحهم، ووقارهم في جميع الأحوال، وقد أورثهم إيمانهم طمأنينة روحية، في حين تورثنا أمانينا احتياجاتنا المصنوعة قلقاً دائماً يبعثنا عن تلك السعادة"^(٣٤).

أما " روبرتسون " فيرى أن المسلمين تفردوا دون غيرهم بحرصهم الكبير على دينهم وتوصيله لكل من يحيا على ظهر الأرض في إطار من السماحة والمشروعية، يقول: "إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة على دينهم وروح التسامح نحو أتباع الديانات الأخرى، وأنهم مع امتشاق الحسام تركوا لمن لا يرغب حرية التمسك بدينه"^(٣٥).

كما شهد البطريق "عيشوبايه" بأن "العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون: إنهم ليسوا أعداء

(٣٤) مجلة منار الإسلام، الإمارات - جمادى الأولى - سنة ١٤١٨م، ص ١١٧ وما بعدها.

(٣٥) المرجع السابق.

لنصرانية، بل يمتدحون ملتنا، ويقرون قدسنا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا"^(٣٦).

ويقرر الإنجليزي السير "توماس أرنولد" في كتابه القيم " الدعوة إلى الإسلام " حقيقة واضحة وهى أن القبائل المسيحية قد اعتنقت الإسلام عن رغبة جامحة لا عن إرغام وإكراه فيقول: "لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام قد اعتنقت عن اختيار وإرادة حرة، ، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات المسلمين الشاهد على هذا التسامح"^(٣٧).

ثم يبرهن على ذلك بقوله: "لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن اضطهاد وظلم قصد منه استئصال الدين المسيحى، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها فرديناند .. دين الإسلام من أسبانيا، أو التى جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتى مذهبا يعاقب عليه متبعوه فى فرنسا، أو بتلك السهولة التى ظل اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة.

ومن وجهة نظره الخاصة يرى "توماس أرنولد" أن بقاء دور العبادة المسيحية دليل "واضح على ما يقوله: "ولهذا فإن مجرد بقاء

(٣٦) الشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام (مرجع سابق) ص ٤١ بتصرف.

(٣٧) د. أحمد الحوفى: سماحة الإسلام، الهيئة العامة للكتاب، ص ٨٣، ط ١٩٩٧م.

الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة المسلمين في الدول الإسلامية بوجه عام من تسامح^(٣٨).

أما "زيغريد هونكه" فقد نقلت في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب" مقولة لأحد ملوك الفرس الذين بهرتهم سماحة هذا الدين، ويسمى كيروس" يقول: إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون كمخربين يدمرون البلاد ويقتلون العباد وينشرون الفساد"^(٣٩).

ويرى "القس ميشو" أن القرآن له الأثر الكبير في أهله، فقد أمرهم بالجهاد وفي نفس الوقت أوجب عليهم التسامح في كل الأحوال، كما يرى أنه من العار على الشعوب المسيحية ألا تتعلم السماحة من المسلمين فيقول: "إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وقد أعفى الرهبان والبطارقة وخدمهم من دفع الجزية وحرّم قتلهم لعكوفهم على العبادة".

ثم يواصل قائلاً: " .. ومن المؤسف ألا تقتبس النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أى معتقد عليهم إكراهاً"^(٤٠).

وقد قارن "ميشو" في كتابه "سماحة دينية في الشرق" - بين الفتح الإسلامي للقدس في عهد عمر والاستيلاء المسيحي على القدس، كما عاب على المسيحيين أنهم لم يحلوا بروح التسامح فقال: "لما استولى عمر على مدينة أورشليم لم يفعل بالمسيحيين ضرراً مطلقاً؛

(٣٨) منار الإسلام - شعبان ١٤١٨هـ - ص ١١٧.

(٣٩) منار الإسلام - جمادى الأولى سنة ١٤١٨هـ. ص ١١٧ وما بعدها.

(٤٠) المرجع السابق.

ولكن لما استولى المسيحيون قتلوا المسلمين ولم يشفقوا، وأحرقوا اليهود إحراقاً .. ولقد أبقت من تتبعى للتاريخ أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع فى المعاشرة عند الغلظة، وحسن مسأيرة ولطف ومجاملة، وهو إحساس لم يشاهد فى غير المسلمين إذ ذاك ، خصوصاً أن الشفقة والرحمة والحنان كانت إمارات ضعف عند الأوروبيين، وهذه حقيقة لا أرى وجهاً للطعن فيها"^(٤١).

وكان للتسامح الإسلامى فى البلدان المفتوحة أثر كبير فى انطباعات الشعوب المجاورة لهذه البلاد، حتى إن أغلبها تمتت الفتح الإسلامى، ووجدت فيه المبدأ والملاذ، يقول "ترومان بينزا": "لما فتح العثمانيون القسطنطينية كان أكثر الشعب المسيحى فى عشية الكارثة ينفرون من أى اتفاق مع كنيسة روما الكاثوليكية أشد من نفورهم من الاتفاق مع المسلمين، وما زال الناس يرددون دون الكلمة المشهورة التى نطق بها رئيس دينى فى بزنتية فى ذلك الحين وهى: "إنه لخير لنا أن نرى العمامة التركية فى مدينتنا من أن نرى فيها تاج البابوية"^(٤٢).

وقد شهدت أوروبا نفسها صوراً مشرقة من تسامح المسلمين فتعامل المسلمون - كدأبهم - مع أهل الأندلس معاملة طيبة ، وكفلوا لهم حرية العقيدة، بل قلدوهم الوظائف الرفيعة، والمناصب العليا.

(٤١) مختارات من سماحة الإسلام ، د. أحمد الحوفى (بتصرف) ص ٨٣ وما بعدها.

(٤٢) هذا ما نقله د. أحمد الحوفى عن كتاب "الأمبراطورية البزنطية" لفورمان بينزا.

يقول الكونت "هنرى كاسترى": فى كتابه "الإسلام"، وإذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام إلى استقرار حكومته استقراراً منظماً رأيناه أكثر محاسنة، وأنعم ملمسماً، فما عارض العرب قط شعائر الدين المسيحى؛ بل بقيت روما نفسها حرة فى المراسلات مع الأساقفة الذين كانوا يرعون الأمة الخالية.

ثم ينقل عن "دوزى" قوله: "لقد أبقى المسلمون سكان الأندلس على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدهم وبعض الوظائف، حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش، وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين، وحصل بينهم زواج كثير.

"وكم من أندلسي بقى على دينه، ولكن أعجبتة حلوة التمدن العربى، فتعلم اللغة وآدابها، وصار القسس يلومونهم على ترك ألحان الكنيسة، والتعلق بأشعار الظافرين، وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها، لذلك لما اضطهدت أوروبا اليهود لجأوا إلى خلفاء الأندلس فى قرطبة؛ لكن لما دخل الملك كارلوس سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين، ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلاداً إلا أعملوا السيف فى يهودها ومسلميها، وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مجيراً وملجأ فى الإسلام، فإن كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين"^(٤٣).

يقول "ميخائيل الأكبر" بطريق أنطاكية بعد أن استعرض سلسلة الاضطهادات التى وقعت على أيدي هرقل ورجاله: "وهذا هو السبب فى

(٤٣) د. أحمد الحوفى: مرجع سابق ص ٨٣، وما بعدها بتصرف.

أن إله الإنقاذ الذى تفرد بالقوة والجبروت والذى يدل دوله البشر كما يشاء - فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضع - لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا، وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل (المسلمين) من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم.

".. ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التى وجدت فى حوزتها، ومع ذلك لم يكن كسباً هيناً أن نتخلص من قسوة الروم، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام"^(٤٤).

يقول " أدوالدوبلى" أحد رهبان القديس "ديس" القسيس الخاص للويس السابع فى الحرب الصليبية الثانية ١١٤٨م - يقول عن إسلام ثلاثة آلاف صليبي وانضمامهم إلى جيوش المسلمين: "لقد جفوا إخوانهم فى الدين، كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار (يعنى المسلمين) الذين كانوا رحماء عليهم، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقيفروا إلى صفوف الأتراك .. آه ... إنها لرحمة أفسى من الغدر، لقد منحروهم الخبز، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحداً من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قدموه لهم من خدمات"^(٤٥).

أما شهادة الدكتور " فيليب حتى" فهى شهادة من نوع خاص لسببين أولهما: أنه مسيحى وثانيهما: أنه عربى تجرى فى عروقه دماء العروبة، فهو يمتدح الإسلام ويرى جدارته باستيعاب كل من يعيش تحت سمائه فى إطار من العدل والتسامح، فيعرف الإسلام بأنه "حضارة

(٤٤) نقلاً عن الدكتور محمد إبراهيم الجيوشى مرجع سابق ص٤٧ (بتصرف)

(٤٥) المرجع السابق.

عامّة شاملة تنظّم كل من يعيش تحت سماءها في حرية وصفاء ، ويعيش غير المسلمين مع المسلمين على قدم المساواة تربطهم روابط المحبة والأخوة^(٤٦).

ويعد ...

فهذا .. نزر يسير من شهادات غير المسلمين من وغيرهم من الذين وقفوا على حقيقة هذا الدين السمح، بعظمته التي لا تضاهيها عظمة، وبإنسانيته التي ليس لها حدود .. فلم يستطع هؤلاء أن يكتموا شهادتهم أو أن يسلبوه حقه .. فأنطقهم الله الذي أنطق كل شيء.
ومعذرة إن كنت أكثر من الاقتباسات أو أطلت في بعضها.
فتلك أقوالهم ... وهذه بضاعتهم

(٤٦) منار الإسلام شعبان ١٤١٨هـ (مرجع سابق) ص ١١٧، وما بعدها.

ثانيا : الوثائق

وثيقة المدينة

بسم الله الرحمن الرحيم

١. هذا كتاب من محمد النبي [رسول الله] بين المؤمنين والمسلمين من قريش و [أهل] يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .
٢. أنهم أمة واحدة من دون الناس .
٣. المهاجرون من قريش على ريعتهم يتعاقلون بينهم وهم يَفْدُونَ عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
٤. وبنو عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
٥. وبنو الحارث [بن الخزرج] على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
٦. وبنو ساعدة على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
٧. وبنو جُشم على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
٨. وبنو النجار على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
٩. وبنو عمرو بن عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٠. وبنو النَّبِيتِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقِلُونَ مَعَاقِلَهُمْ ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .
١١. وَبَنُو الْأَوْسِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقِلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى ؛ وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .
١٢. وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرَكُونَ مَفْرَحًا بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطَوْهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلِ ، وَأَنْ لَا يُحَالِفَ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا دُونَهُ .
١٣. وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ [أَيْدِيهِمْ] عَلَى [كُلِّ] مَنْ بَغَى مِنْهُمْ ، أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظَلَمٍ ، أَوْ إِثْمًا ، أَوْ عَدْوَانًا ، أَوْ فِسَادًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا ، وَلَوْ كَانَ وَلَدًا أَحَدِهِمْ .
١٤. وَلَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ ، وَلَا يَنْصُرُ كَافِرًا عَلَى مُؤْمِنٍ .
١٥. وَأَنَّ نِزْمَةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ يُجْبِرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ .
١٦. وَأَنَّهُ مَنْ تَبِعْنَا مِنْ يَهُودٍ فَإِنَّهُ لَهُ النَّصْرُ وَالْأَسْوَةُ غَيْرُ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرٍ عَلَيْهِمْ .
١٧. وَأَنَّ سَلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ ، لَا يَسَالِمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، إِلَّا عَلَى سِوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ .
١٨. وَأَنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يُعَقَّبُ بَعْضُهَا بَعْضًا .
١٩. وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُبِيءُ بَعْضُهُمْ عَنِ بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
٢٠. وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هَدًى وَأَقْوَمِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لَفَرِيشٍ وَلَا نَفْسًا ، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ .

٢١. وأنه من اعتببط مؤمناً قتلاً عن بيعة فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولي المقتول [بالعقل] وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .
٢٢. وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤوية ، وأن من نصره ، أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .
٢٣. وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد .
٢٤. وأن اليهود يُنْفَقُونَ مع المؤمنين ما داموا محاربين .
٢٥. وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليتهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .
٢٦. وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف .
٢٧. وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .
٢٨. وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .
٢٩. وأن ليهود بني جُشم مثل ما ليهود بني عوف .
٣٠. وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .
٣١. وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .
٣٢. وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٣٣. وأن لبني الشُّطَيْبَةِ مثل ما ليهود بني عوف ، وأن البر دون الإثم .
٣٤. وأن موالي ثعلبة كأنفسهم .
٣٥. وأن بطانة يهود كأنفسهم .
٣٦. وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ، وأنه ينحجز على ثأرٍ جُرح ، وأنه من فتك قينفسه وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبرَّ هذا .
٣٧. أ) وأنَّ على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .
٣٧. ب) وأنه لا يأثم امرءٌ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم .
٣٨. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
٣٩. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .
٤٠. وأن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم .
٤١. وأنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها .
٤٢. وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .
٤٣. وأنه لا تُجار قريش ولا من نصرها .
٤٤. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

٤٥. أ) وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين .

٤٥. ب) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

٤٦. وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .

٤٧. وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمنً ومن قعد آمنً بالمدينة ، إلا من ظلم وآثم ، وأن الله جارٍ لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

هدنة الحديبية

- ١ . باسمك اللهم .
- ٢ . هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .
- ٣ . واصطلاحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض .
- ٤ . [على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، ومن قدم المدينة من قریش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله] .
- ٥ . على أنه من أتى محمداً من قریش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قریشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه .
- ٦ . وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وإنه لا إسلال ولا إغلال .
- ٧ . وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ، ومن أحب أن يدخل في عقد قریش وعهدهم دخل فيه . - فتواثبت خزاعة فقالوا : " نحن في عقد محمد وعهده " وتواثبت بنو بكر فقالوا : " نحن في عقد قریش وعهدهم " .
- ٨ . وأنت ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قبال ، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب : السيوف في القرب ، ولا تدخلها بغيرها .
- ٩ . [وعلى أن هذا الهدى حيث ما جئناه ومحله فلا تقدمه علينا] .

١. أشهدَ على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين :
أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ،
وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمود
بن مسلمة، ومكرز بن حفص (و...؟ من المشركين) . وعلى
بن أبي طالب وكتب .

معاهدة مع أهل بيت المقدس

روى الأزدي : لما نزل عمر رضى الله عنه وهم بأيليا، بعث أبو عبيدة إلى أهل أيليا أن « أنزلوا إلى أمير المؤمنين، فاستوتقوا لأنفسكم » . فنزل إليه ابن الجعد (ن : ابن الجعيد) فى ناس من عظمائهم . فكتب لهم عمر رضى الله عنه كتاب الأمان والصلح ... وولى أبو عبيدة عمرو بن العاص فلسطين . (ولم يرو الأزدي كتاب عمر) ، ولكن ذكره الطبري كما يلى :

صالح عمر أهل أيليا - (يعنى بيت المقدس) - بالجابية، وكتب لهم فيها الصلح ، لكل كورة كتاباً واحداً ؛ ما خلا أهل أيليا . وأما سائر كتبهم فعلى كتاب لُدّ على ما سيأتى بعد هذا :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل أيليا من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها . إنه لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا يُنقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم . ولا يُكرهون على دينهم ولا يضارَ أحد منهم ، ولا يسكن بأيليا معهم أحد اليهود .

وعلى أهل أيليا أن يعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت . فمن خرج منهم فإنه آمنٌ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمئهم . ومن قام منهم فهو آمنٌ . وعليه مثل ما على أهل أيليا من الجزية . ومن أحب من أهل أيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلي بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمئهم .

ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعد ،
وعليه مثل ما على أهل أيليا من الجزية ؛ ومن شاء سار مع الروم ،
ومن شاء رجع إلى أهله . فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد
حصادهم .

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء
وذمة المؤمنين ، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .

شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد
الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وكتب وحضر ستة خمس
عشرة .

معاهدته صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران

هذا ما كتب محمد النبي رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
لأهل نجران : إذا كان عليهم حُكْمُهُ في كل ثمرة ، وفي كل صفراء
وبيضاء ورقيق ، فأفضل ذلك عليهم ، وترك ذلك كله لهم ، على ألفي
حُلة من حلل الأواقي : في كل رجب ألف حلة ، وفي كل صفر ألف
حلة ، كل حلة أوقية من الفضة . فما زادت على الخراج ، أو نقصت
عن الأواقي فبالحساب . وما قضاوا من دروع ، أو خيل ، أو ركاب ،
أو عروض أخذ منهم بالحساب . وعلى نجران مؤنة رسلي ، ومتعتهم ،
ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ، ولا تحبس رسلي فوق شهر .
وعليهم عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيراً ،
إذا كان كيد باليمن ومعرفة . وما هلك مما أعاروا رسلي من دروع ، أو
خيل أو ركاب ، أو عروض ، فهو ضمير على رسلي ، حتى يؤدوه
إليهم .

ولنجران وحاشيتها ، جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على
أموالهم ، وأنفسهم ، وملتهم ، وغائبهم ، وشاهدهم وعشيرتهم ، وبيعهم
وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . لا يُغَيَّر أسقف من أسقفته ولا
راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم ربية ولا دم
جاهلية . ولا يحشرون ، ولا يعشرون ولا يطاء أرضهم جيش . ومن
سال منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين .
ومن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة . ولا يؤخذ رجل
منهم بظلم آخر .

وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله ، وذمة محمد النبي رسول
الله حتى يأتي الله بأمره ، ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم ، غير مثقلين
بظلم .

شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف
من بنى النضر ، والأقرع بن حابس الحنظلي ، والمغيرة بن شعبة
وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبي بكر .

(وقال يحيى بن آدم : وقد رأيت كتاباً في أيدي النجرانيين ،
كانت نسخته شبيهةً بهذه النسخة ، وفي أسفله : وكتب على بن أبو !
كذا [طالب ، ولا أدري ماذا أقول فيه) .

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
■ تقديم.....	٣
■ أولاً : الدراسات.....	٧
التسامح في الإسلام	
أ.د. محمود حمدي زقزوق.....	٩
سماحة الإسلام في الجانب الاجتماعي	
أ.د. أحمد عبد المبدى النجمى.....	١٩
الدولة العثمانية وتسامحها مع غير المسلمين	
د. هدى درويش.....	٤٩
نموذج لتسامح المسلمين مع الآخر (المسلمون يدافعون عن اليهود ضد الاضطهاد الأوروبي)	
أ.د. أحمد عامر.....	٨٣
التسامح من خلال قراءة لقانون الحرب في الإسلام وفي القانون الدولي العام	
أ.د. جعفر عبد السلام.....	٩٣
مظاهر التسامح فى العلاقة بين المسلمين وغيرهم	
أ.د. محمد بدر معبدى.....	١٣٥
حرية المعتقد الديني لغير المسلمين في ظل سماحة الإسلام	
أ.د. على عبد العال الشناوي.....	١٦١
التسامح الإسلامي بين النظرية والتطبيق	
أ. وليد عبد الماجد كساب.....	١٨٩
■ ثانيا : الوثائق :.....	٢٢٥
■ الفهرس.....	٢٣٩

رقم الإيداع: ٢٥٤٦/٢٠٠٥

 **المركز العلمي للطباعة والكمبيوتر**
نسخة كمبيوتر - طباعة (أوفست - ماسترا)
كل ما يخص الطباعة تجده بين يدينا
الإدارة : ٢٠ ش ترعة الجلاء - القصرين الزاوية الحمراء
المطابع : ٤ ش محمود الفار من المتايوي القصرين - الزاوية الحمراء
محمول : ٠١٠/٢٥١٠٩١١ ٤٢٤٠٤٦٥ : ☎